الإعجاز التربوي

في القرآن الكريم

الإعجاز التربوي

في القرآن الكريم

أ.د. مصطـفى رجـب

٢٠٠٦

جدارا للكتاب العالمي
عمان- الأردن

عالم الكتب الحديث
إربد- الأردن

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٥٩٨/ ١١/ ٢٠٠٦)

٢١١

رجب، مصطفى

الاعجاز التربوي في القرآن الكريم/ مصطفى رجب.- إربد: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٦.

( ) ص.

ر.إ.: ٢٥٩٨/ ١١/ ٢٠٠٦.

الواصفات:/ التربية الاسلامية// اعجاز القرآن// التربية// القرآن/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة

ردمــك ISBN 9957- 466- 06- 2

جدارا للكتاب العالمي

للنشر والتوزيع

عمان-العبدلي-مقابل جوهرة القدس

تلفاكس: ٥٦٦٧٢١١

الفهـــرس

مقدمة

أكرمني الله تعالى بأن نشأت في بيت من بيوت القرآن الكريم فقد كان والدي وجدي وجد والدي من أسرة تحفظ القرآن الكريم وتعلمه للناس على مدى سنين طويلة. ومن ثم فقد ارتبطت نشأتي ولغتي ودراستي بالقرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد وقد أتيح لي أن أدرِّس مقررات في الدراسات الإسلامية لطلاب كليات التربية في صعيد مصر فجعلت قسماً كبيراً من تلك المقررات يهتم بدراسة علوم القرآن وكان من ثمرة ذلك صدرو كتابي (فيض المنان في علوم القرآن) وكتاب (نحو ثقافة إسلامية) عام ١٩٩٨م، ونفذ الكتابان– ولله الحمد– بأسرع مما توقعت وتوقع الناشر.

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم للقارئ الكريم هو فكرة ظلت تتردد بين جنبات قلبي ونفسي سنين عددا. فقد كنت بحكم تخصصي الأول في التربية، موقناً بأن كتاب الله المعجز لم يقف إعجازه ضد حدود الإعجاز البياني الذي أوسع بحثاً، وما يزال زللاً عند حدود الإعجاز العلمي الذي اختُلف فيه وعنه وحوله حتى الآن.

وإنما آمنتُ إيماناً عميقاً بأن الكتاب الكريم بما هو كتاب هداية وإرشاد، فإن الوجه الأجدر بالبحث فيه هو ذلك الإعجاز النفسي التربوي الذي غفل عنه الغافلون. وتجاهله الدارسون وإن كنت أراه جديراً بكثير من العناية والاهتمام.

قد كان لتدريسي لمقرر (نصوص تربوية من الكتاب والسنة) لطلاب الماجستير في كلية الشريعة بجامعة اليرموك عام ٢٠٠٢م، أثر بالغ في نفسي تمثل في محاولة اجتهادي لاستنباط مايمكن من جوانب الإعجاز التربوي في القرآن الكريم.

فهذا الكتاب خلاصة موجزة لتلك الرحلة. وهو في الوقت ذاته مجرد محاولة أرجو أن يكتب الله تعالى لها أسباب النجاح. وأرجو من القارئ الكريم أن يتفضل مشكوراً [إذا رأى في الكتاب خللاً أو قصوراً] بإرشادي إليه حتى أتلافاه في طبعة جديدة.

والله تعالى من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل

سوهاج في رمضان المعظم ١٤٢٦هـ ، أكتوبر ٢٠٠٥م

د/ مصطفى رجب
أستاذ أصول التربية
والعميد الأسبق لكلية التربية بسوهاج
العنوان: مصر – سوهاج – كلية التربية
E-mail:
mostafaragab@yahoo.com

التربية القرآنية

منذ ما يزيد عن نصف قرن، يحاول التربويون العرب أن يجعلوا للتربية الإسلامية موقعاً متميزاً بين العلوم التربوية، وهذه المحاولات المستمرة لم يقدر لها أن تنجح في (خلخلة) البنية التقليدية الموروثة للوائح كليات ومعاهد التربية -على الأقل في مصر- بحيث نرى مقرراً مستقلاً تحت مسمى (التربية الإسلامية) .

بل إن مناهج البحث نفسها ما تزال تدرس في كليات التربية من خلال عدة كتب متوارثة ينقل بعضها عن بعض، ويكرر اللاحق ما قاله السابقون دون بذل جهد يذكر على طريق (أسلمة) مناهج البحث التربوي الوافدة.

وقد يكون مرجع الوضع الراهن للتربية الإسلامية مرتبطاً بالوضع العام للعلوم التربوية جمعاء، فهي ما تزال بحاجة إلى ترسيخ أقدامها في البناء الأكاديمي في مجتمعاتنا العربية. وما تزال بحاجة إلى تحديد أكثر لأبعاد هويتها، وبيان أهميتها، وفرض سطوتها بعد أكثر من قرن وربع القرن من دخولها في معاهدنا العربية. بعكس علوم أخرى أصغر من التربية عمراً استطاعت تحديد هويتها، وفرض أهميتها على مؤسساتنا الجامعية والعلمية.

وقد انعكس تشتت هوية ما عُرف بـ (التربية الإسلامية) على الرسائل والبحوث التي قدمت في هذا الميدان الجديد، فلا نعرف رسالة ولا بحثاً في ميدان التربية الإسلامية استخدم صاحبه منهجاً بحثياً يخالف الشائع من مناهج البحث التربوي الغربية إلا نادراً .

بل رأينا -مع شديد الأسف- رسائل وبحوثاً تدعي أنها في مجال التربية الإسلامية، وتعتمد الإحصاء منهجاً ووسيلة للوصول إلى النتائج. وإذا كنا نسلّم بجدوى -وأهمية- الإحصاء في البحث التربوي عموماً، فمن العسير علينا أن نستسيغ أن ٨٠ ٪ (مثلاً) من العينة المباركة قد رأت أن هذه الآية الكريمة تدل على كذا وكذا في حين رأى ٢٠ ٪ من العينة، أن تلك الآية تدل على كيت وكيت !!.

ورأينا أيضاً -مع شديد الأسف- رسائل وبحوثاً تدعي أنها في مجال التربية الإسلامية، وتحصر التربية الإسلامية في ذلك المقرر (الميت) من مقررات وزارة التربية والتعليم الذي لا يهتم به لا المعلم ولا التلميذ. لأنه لا يضاف إلى مجموع الدرجات. ولا يعلم أحد ، ولا يجرؤ أحد أن يسأل، لم لا يضاف إلى مجموع الدرجات، وكأن هذا السؤال يهتك ستراً من الأستار المقدسة.

ورأينا بعض من في نفوسهم غرض وفي قلوبهم مرض من الصحفيين وأشباه الصحفيين يكتبون في هذه الزاوية أو تلك يطالبون الوزارة بأن تخفف قليلاً من (الرعب) الذي يبعثه في نفوس البراعم الأبرياء من التلاميذ تدريس سوراً قرآنية فيها عنف كسورة الزلزلة !!!

تلك كلمات أردت أن أمهد بها لما أود أن أقترحه من أهمية أن نحدد للتربية الإسلامية (هوية بحثية) حتى لا نقضي أربعين عاماً أخر، نتساءل:

هل نجعلها مقرراً مستقلاً ؟

أو نجعلها جزءاً من تاريخ التربية كما هو الوضع الآن ؟

أو نجعلها علماً عالياً يدرس في الدراسات العليا ؟

أو نجعلها منهج حياة كما يقال أحياناً ؟

وأيّاً ما كانت الوضعية التي سنتفق -أو يرجى أن نتفق- عليها فإن الخطوة الأولى -في نظري- تتمثل في أن نسلم بأمرين جوهريين:

أولهما: أن نقر بأن للتربية الإسلامية خصوصية تجعلها فوق المناقشة بحكم أن أساسها القرآني أقدس من أن يعبث به العابثون من الدارسين فيحكمون فيه الإحصاء وما أشبه الإحصاء من أدوات البحث التي تناسب القضايا الفكرية الإنسانية المصدر.

ثانيهما: أن نسلم بألا يقتحم أحد مجال البحث في التربية الإسلامية إلا إذ تلقى (تعليماً ما) بطريقة ما، تجعله يتقن -بدرجة معقولة- علوم القرآن وعلوم الحديث على الأقل. ويكفي هنا أن أشير إلى دراسات تعقب أصحابها كتباً شهيرة في المكتبة العربية في مجال التربية الإسلامية فوجدوا أن النسبة الكبرى مما فيها من أحاديث تتراوح بين الضعيف والموضوع . . .

وبقي أن تخصص دراسات أخرى في فحص (الاستنباطات) العجلى التي يتعثر فيها بعض من يكتبون في التربية الإسلامية وهم يتعاملون مع آيات الكتاب العزيز دون أن تتوفر لهم دراية كافية بعلوم القرآن الكريم.

منهجية التربية القرآنية وفاعليتها:

إن التربية القرآنية للأفراد والجماعات تتضمن منظومة قيمية رفيعة المستوى، تتناغم مفرداتها في وحدة متسقة: اجتماعياً، ونفسياً، وخلقياً. ومن ثم فإنها تسير في طريقين متوازيين لا ينفكان أبداً:

أولهما: يبدأ بالتنفير من السلوكيات الشائنة المستهجنة.

والثاني: يبدأ بالجذب إلى السلوكيات الرشيدة المستحسنة.

والتربية القرآنية تختلف عن التربية البشرية -مع اتحادهما في الهدف إلى حد كبير- في عدة جوانب أهمها:

أولاً : أن التربية القرآنية صياغة إلهية محكمة :

لا تقبل جدلاً، ولا يجري عليها تغيير. وهناك فرق كبير بين كونها (محكمة) وبين كونها (جامدة) فالتربية التي لا قبل جدلاً ولا تغييراً لا نستطيع وصفها بأنها جامدة إلا إذا كانت بشرية المصدر وصمم منتجوها على رفض التغيير، فتصبح أطروحاتهم جامدة يلفظها الزمن، ويتجاوزها التطور الإنساني الحتمي المستمر.

وأما رفض التغيير والجدل لأن منظومة التربية (محكمة) بمعنى أنها صياغة إلهية، فذلك لأنها تحمل في طياتها من المواصفات مالا ينفك -بالطبيعة- عن صفات البشر الذين هم -بطبيعتهم أيضاً- صناعة وصياغة إلهية.

فالتربية القرآنية بهذه المثابة تتماسّ مع الخواص النفسية المركوزة في فطرة البشر، فكأنها -بشكل أو بآخر- صمام أمان للسلوك الإنساني إذا ما حاول الخروج على الفطرة (= شروط ومواصفات خلق الإنسان).

ثانياً : أن التربية القرآنية (كاملة) والتربية البشرية (متكاملة) :

بمعنى أن التربية القرآنية وحدة واحدة تحمل كل مقومات البقاء والعطاء. ولا توجد بها ثغرة واحدة -منذ وجدت- فهي كاملة بحكم القدرة الإلهية المطلقة التي أوجدتها.

أما التربية البشرية فهي (متكاملة) بمعنى أنها لم تنشأ بوضعها الحالي، وإنما بدأت على هيئة نظريات أخلاقية، ثم تحولت إلى نظريات نفسية: سلوكية ثم عقلية، ثم معرفية. وأصبحت الآراء فيها تتقارب وتتباعد، تلتقي وتفترق، تتوازى وتتقاطع. ومن ثم فقد اعتراها الاضطراب والتناقض واحتاجت -على مدى رحلتها كعلم- إلى الترقيع والتوفيق والتلفيق من حين لآخر حتى تستطيع الاستمرار.

ثالثاً : التربية القرآنية تستغني بنفسها عن العلوم الأخرى:

ذلك أن القرآن الكريم جاء صالحاً لكل زمان ومكان ومن ثم فإن تشريعاته – بما فيها التربية الإنسانية– لا تحتاج إلى أية مساعدة بشرية، أمّا التربية البشرية فهي تحتاج إلى نتائج العلوم الأخرى وتستفيد منها، فكلما حدث تغير في مناهج علم الاجتماع أو علم النفس أو علوم السياسة والاقتصاد والفلسفة، تبع ذلك تطور حتمي في مناهج البحث التربوي أدى بالتالي إلى تغير في نظريات التربية وافتراضاتها ووسائطها وأساليبها.

رابعاً : التربية القرآنية كلية ، والتربية البشرية جزئية:

والفرق الجوهري الرابع أن التربية القرآنية (كلية) لمعنى أنها تنظم سلوك الإنسان من حيث هو إنسان ومن هنا جاء وصفها بأنها (محكمة) لا تشابه ولا تتناقض ولا تحتاج إلى ترقيع واستكمال، فإذا وصُف [الإنسان] في القرآن الكريم بصفة من الصفات (ظلوم، جهول، عَجول، جاحد . . إلخ) فمعنى ذلك أن كل صفة من تلك الصفات توجد في كل إنسان من جنس البشر بدرجة من الدرجات قد تزيد أو تنقص، فالطبيعة البشرية –في نظر القرآن– واحدة، وبقدر ارتفاع الصفات والمخفاض أخرى، ترتسم ملامح الإنسان، وتتحدد معالم سلوكه، وتتألف صورة شخصيته.

أما التربية البشرية فإنها جزئية، بمعنى أنها أنتجت لتعالج جزءاً واحداً من سلوك الإنسان فعلم النفس التربوي يدرس عقل الإنسان: قدراته وإمكاناته، ومواهبه، ومن ثم فهو يهتم بالذكاء والتحصيل وما يعتري التحصيل المعرفي للإنسان من معوقات. ويحصر نفسه في هذا المجال، أما علم الصحة النفسية فهو يهتم بالنفس الإنسانية من حيث السواء والاضطراب، فيدرس الهوس والجنون والوسوسة والكذب والصدق وفلتات اللسان وما يتصل بذلك من مشاعر داخلية كالإحساس بالذنب والقهر تأنيب الضمير . . إلخ.

وعلى الرغم من التجاور المعنوي بين (النفس) و (العقل) فإن مجالات البحث في هذين العلمين التربويين متباعدة، ولكل منهما اختباراته ومقاييسه وأساليبه التقويمية الخاصة. . وتبقى مساحة مثل (الخيال) أرضاً مشاعاً بين العِلْمين !! .

هذه التجزئة لا نلمسها في التربية القرآنية ولا نجد لها أثراً لأنها تقوم على (الكليات) لا على (الجزئيات).

خامساً: التربية القرآنية كونية عالمية ، والتربية البشرية إقليمية محلية:

وإذا كانت التربية القرآنية مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان فإنها تتخطى حواجز المكان ولا تخضع للعوامل القومية والجغرافية والأيديولوجية التي تخضع لها نظم التربية البشرية، فالتربية البشرية تستمد مقوماتها من الدساتير والقوانين والعادات والتقاليد والأعراف بين الناس وهي عوامل متغيرة من زمان لزمان، ومن مكان لمكان.

ففي الدولة الواحدة إذا انتقل نظام الحكم من الشمولية إلى الديموقراطية لاحظنا تغيراً تابعاً في نظم التعليم وأهداف التربية، ومناهج الدراسة، وطرق التعليم ، وأساليب الإدارة.

وهذه العوامل كلها تختلف من دولة إلى أخرى، ومن حضارة إلى حضارة ومن بيئة إلى بيئة، ويكون لكل منها شخصيته الثقافية الخاصة ذات السمات المختلفة عن الأخرى.

أما التربية القرآنية فهي تصلح لكل البشر مهما اختلفت دياناتهم وثقافاتهم. فالتربية القرآنية حين تجرِّم الحسد والغيرة المبالغ فيها، والظلم، والسرقة، والكذب، والغش، والخداع، فإنها تستجيب بذلك لما يمكن أن نسميه بـ (مقومات الإنسانية الحقة) بقطع النظر عن أية عوامل أخرى يخضع لها الإنسان موضوع التربية. وإذا تحولت هذه الكليات السلوكية إلى تطبيقات عملية في الإدارة ونظم التعليم وطرق التدريس ومناهج الدراسة أصبح هذا كله لوناً من الإعجاز التربوي التشريعي الذي لا يدانيه إعجاز.

سادساً : التربية القرآنية لا تعرف العشوائية:

إن تقسيم التربية البشرية –أياً كان مصدرها– إلى تربية مقصودة وتربية غير مقصودة Formal and Non-Formal أو شكلية وغير شكلية، يجعل للممارسات التي تتم في الشارع وعبر جماعات الرفاق وضعية تربوية مقننة معترفاً بها، وهذا ليس وارداً في مجال التربية القرآنية

لأنها تحسم سلفاً مصادر التوجيه السلوكي، ولا تترك الإنسان –موضوع التربية– هدفاً لأنماط سلوكية عشوائية وغير مقصودة تتقاذفه رياحها على غير هدى ويتقبلها راضيا على أنها مصدر من مصادر تربيته.

وسائط التربية القرآنية:

وتستخدم التربية القرآنية وسائط متعددة في سبيل تحقيق أهدافها منها:

١- الكلمة:

حيث نجد الكلمة في السياق القرآني تؤدي وظيفة نفسية ذات أبعاد متعددة، مثل بعد الترغيب، بُعد التنفير، بعد إثارة الفزع، بعد إثارة العطف والحنو، وتتعاون تلك الأبعاد المختلفة للوظيفة النفسية فتفعل فعلها في شحن النفس بتيارات انفعالية جارفة تقوم بدور فاعل في تعديل السلوك الإنساني.

٢- المثل:

وقد تناولت دراسات متعددة العطاء التربوي للمثل القرآني وما يفيض به من عوامل تأثير خاصة، قد يكون بعضها من خلال قصة يتضمنها المثل، وقد يكون بعضها من خلال عبارة المثل ذاتها.

٣- القصة القرآنية:

إن أسلوب القصة من أقوى أساليب التربية تأثيراً، وأسلسها عرضاً، فالإنسان بفطرته ميال إلى حب الاستطلاع وتقصي أخبار

الآخرين، ومولع بمتابعة الأحداث والانفعال بها معها، ولا شك في أن أعظم سرد للقصة في القرآن الكريم، وقد أورد القرآن الكريم أخبار الأمم السابقة بطرق مثيرة للعواطف الخيرة، صارفة عن النوازع الشريرة، داعية إلى التبصر والتأمل والتماس العبرة، ولاشك في أن قصص القرآن الكريم فيه -من الناحية الفنية- معظم ما اتفق عليه دارسو الآداب من عناصر فنية كالزمان والمكان والأحداث والصراع والأشخاص، وله -من الناحية الموضوعية- أهداف كثيرة، لعل الهدف التربوي من أهمها، لما ينضوي تحته من قيم ثمينة، وعطاء سامٍ متجرد للدعاة والمربين والهداة والمصلحين.

القرآن الكريم مصدرا للفكر التربوي:

لا خلاف بين المشتغلين بالعلوم الإسلامية والعربية على كون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المصدرين الأولين لتلك العلوم مهما تختلف مناهج البحث فيها. ولا خلاف بينهم كذلك على كون القرآن الكريم هو المصدر الأول من هذين المصدرين. وفيما يتعلق بدراسة الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم، هناك أكثر من مدخل يمكن في رأينا إجمالها فيما يلي:

١- دراسة الفكر التربوي من زاوية فلسفية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يعقد موازنات بين عطاء القرآن الكريم في مجال فلسفة التربية وما قالت به الفلسفات التربوية

البشرية. ويدرس الباحث هنا الجوانب المعروفة لأية فلسفة تربوية مثل: رؤيتها للطبيعة البشرية، والقيم، والوجود، والحرية .. إلخ.

٢- دراسة الفكر التربوي من زاوية اجتماعية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يركز على مشكلات المجتمع وكيف تناولها القرآن الكريم. ويتعمق الباحث في تحليل الأبعاد المختلفة لتلك المشكلات وأثرها في الفرد. كما يتناول البحث في هذا الميدان قضايا العمل والإنتاج والاقتصاد والعلاقات الإنسانية بوصفها من "القوى والعوامل" المؤثرة في أي نظام تربوي.

٣- دراسة الفكر التربوي من زاوية فردية:

وفي هذا الإطار يمكن للدارس أن يبحث وضعية "الإنسان الفرد" في القرآن الكريم بوصفه المحور الذي تدور حوله عملية التربية، فيرى كيف عرض الإنسان في القرآن: خلقاً وتكويناً وتنشئة. وكيف بيّن القرآن أحوال نموه المختلفة وطباعه المختلفة.

٤- دراسة الفكر التربوي من زاوية القصة القرآنية:

وفي هذا الإطار يدرس الباحث قصص القرآن الحافلة بالعطاء التربوي المكثف بحيث يكشف عن مسالك التربية بالقصة في القرآن، ويحلل كيف استخدم القرآن عناصر القصة المختلفة: الشخصيات- الحوار- الزمان- المكان- الأحداث في إبراز الفكرة الأساسية للقصة.

الأهداف العامة للقصص القرآني:

أولاً : تأكيد العقيدة الإيمانية :

فالقرآن الكريم حين يقص علينا أنباء الأنبياء السابقين، وما حدث ممن أرسلوا إليهم من جحود ونكران. وعدوان على شريعة الله. فهو بهذا يدعو أمه الإسلام إلى الاستمساك بحبل الله المتين، ودينه القويم، ودعوة الأنبياء جميعاً واحدة وإن اختلفت الظروف التاريخية لكل نبي عمن جاء بعده.

وخلاصة تلك الدعوة كما يتضح من استعراض قصص الأنبياء في القرآن هي تأكيد عقيدة توحيد الله عز وجل. ويمكن تتبع دلالة حروف مادة (س.ل.م) ومشتقاتها المختلفة: أسلم، أسلمت، مسلم، إسلام، في قصص القرآن- وعلى ألسنة الأنبياء جميعاً في القرآن الكريم.

ثانياً : كشف أحوال النفس الإنسانية:

أكد القرآن الكريم في عدو مواضع الطبيعة الثنائية للنفس الإنسانية، فهي مزيج من الخير والشر معاً

فقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس/ ٧-٨] .

وقال أيضاً: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد/ ١٠].

وكشف عن تنكر الإنسان للنعمة وتغير أحواله إزاءها في عدة مواضع من القرآن الكريم بطريقة مباشرة واضحة.

ولكن القصص القرآني يوضح لنا خبايا تلك النفس في صورة سلوكية، تتجلى في مواقف الحياة المختلفة ففي قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) وفي قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف تقف الطبيعة الخيرة عاجزة أمام الطبيعة الشريرة، وهي في عجزها تلجأ إلى القوة العليا القادرة: قوة الخالق القادر المقتدر فيأتي نصر الله سريعاً كما هو الحال في قصة صاحب الجنتين. أو يأتي وعد الله ووعيده كما في قصة ابني آدم، وفي الحالتين تبوء النفس الشريرة بالندم والخيبة والخسران، وهذا هو شأن كل القصص القرآني في غوصه العميق في أغوار النفس الإنسانية.

ثالثاً: تصويب السلوك الإنساني:

يؤكد القصص القرآني دائماً أن الدنيا دار فناء، وأن الآخرة هي دار البقاء والخلود. والصراع الذي يدور دائماً بين الخير والشر في قصص القرآن يدل على أن الذي يختار الخير العاجل وهو خير الدنيا، يبوء بالخسران المبين.

ومن ثم، فالواجب على قارئ هذا القصص ومستمعه؛ أن يكون حصيفاً فلا يؤثر الفاني على الباقي، وأن تكون اختياراته كلها قائمة على التمسك بالجوهر، وأن ينأى بنفسه عن السعي وراء المظاهر الخداعة. والإنسان إذا سلك هذا السلوك، اقترب من مراد الله تعالى فلا غرو أن يجيئه نصر الله، وتأييده سريعاً:

قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

وقال ﷻ في صفة الذين يصبرون وينتظرون دار البقاء:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد/ ٢٢].

ووازن ﷻ بين الذين يختارون الدنيا ويفرحون بما فيها من متاع زائل، وأولئك الذين يختارون الآخرة وما فيها من نعيم مقيم فقال جل شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة/ ٣٨].

مما سبق يتضح أن هناك مداخل متعددة لدراسة الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم، أشرنا إلى نماذج منها، وهناك غيرها الكثير. ومع ذلك فإن الدراسة الحالية هذه لن تتطرق إلى دراسة مفصلة للفكر التربوي من خلال أحد المداخل السابقة. ولكنها تطمح إلى إثارة نقاط بحثية يمكن لمن يرغب في دراسة العطاء التربوي القرآني أن يتخذ إحداها نقطة انطلاق يبني عليها خطة بحثية متكاملة. ونعتقد أن ذلك أجدى من تركيز البحث في نقطة واحدة قد لا يجد فيها القارئ ما يبحث عنه من إثارة لمشكلات بحثية تهمه.

وفيما يلي نقدم عدة تصورات أكثر تحديداً لدراسات يمكن أن تتعرض للفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم:

التصور الأول: الأهداف التربوية في ضوء القرآن الكريم:

يقول أحد المربين المعاصرين: "إذا لم تكن متاكداً من المكان الذي تسير إليه؛ فإنك ستقل إلى مكان آخر".

وهذه الجملة البسيطة، توضح بشكل عملي أهمية تحديد الأهداف في حياة الإنسان العادي، فالذي يمشي مكباً على وجهه؛ محكوم عليه حتماً بأن يضلّ طريقه. ولما كانت نظم التعليم الحالية وأشكالها المؤسسية أصبحت مسؤولة اجتماعياً عن تنشئة الأجيال وتهيئتها لحمل راية التقدم بالمجتمعات وقيادتها، فقد أصبح لزاماً على تلك المؤسسات التعليمية أن تبذل جهداً واضحاً من أجل تحديد ماهية رسالتها أو بتعبير آخر: أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها.

ومنذ ظهور تصنيف "بلوم" الشهير للأهداف التربوية في أوائل الخمسينيات من هذا القرن، ظهرت مئات من الكتب والدراسات التربوية حول موضوع الأهداف، صياغتها واستخدامها، وبشكل عام تحتدم الخلافات بين الكتاب حول:

- مستويات الأهداف التربوية: ويقصد بها الغايات التربوية، والأغراض، والأهداف العامة، والأهداف الخاصة، ويختلف ترتيبها تصاعدياً أو تنازلياً من مؤلف إلى آخر.

- مصادر اشتقاق الأهداف التربوية: يختلف حولها الباحثون التربويون كثيرا، ولكنها (عند الجميع) لا تخرج عن ثلاثة مصادر تشتق منها أهداف التعليم وهي: المتعلم "من حيث نموه وحاجاته وميوله"، والمجتمع "من حيث طبيعته، ونظمه، ومشكلاته"، والمادة الدراسية "من حيث مجالاتها ومكوناتها وطرق تدريسها".
- سلطة وضع الأهداف التربوية: ويقصد بها الجهة المنوط بها تنفيذياً تحديد الأهداف التربوية المرجوة: أهي السلطات السياسية، أم السلطات التعليمية؟.

والحقيقة التي نؤمن بها: أن كثيراً من التخبط الذي تعاني منه نظم التعليم في البلدان العربية والإسلامية، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتخبط تلك النظم في صياغة أهدافها التربوية. وتبني المشروع الغربي في تناول تلك الأهداف تحت تأثير عوامل عديدة، منها: التبعية الثقافية "وبخاصة التبعية التربوية" للغرب، ويمكن حل هذه الإشكالية ببساطة إذا ما اتجهت دراسات تربوية تتناول صياغة أهداف تربوية في ضوء القرآن الكريم للمجتمعات الإسلامية. وتأتي هذه الخطوة من عدة منطلقات أهمها:

- ثبات الأهداف إذا ما اشتقت من مصدر لا يتغير كالقرآن الكريم بكم كونه نصاً إلهياً لا يأتيه الباطل. وثبات الأهداف يحقق للنظم التعليمية القدرة على إنجاز مهامها في ظل وضوح رؤية نابعة من وضوح الأهداف واستقرارها. أما الأهداف الموضوعة باجتهادات

بشرية فهي تخضع للأهواء السياسية المتقلبة، وحسابات المصالح قصيرة الأمد؛ مما يسبب قلقاً دائماً للنظم التعليمية.

- إبراز الهوية لإسلامية في ارتكازها على كتابها السماوي في تشريعها التربوي، الذي هو جزء من النظام الاجتماعي العام الذي ينبغي له أن يخضع – في شتى منظوماته الداخلية للتشريع الإلهي.
- التصدي للاتهام الشائع للتربية الإسلامية بأنها مجرد "مواعظ" وتوجيهات خطابية جوفاء لا تناسب العصر الحاضر.

والذي نتصوره في هذا الصدد: أن تأخذ عدة دراسات حديثة على عاتقها مهمة اشتقاق أهداف تربوية من القرآن الكريم مصنفة في مستويات تلائم المستويات المعروفة حالياً في الأوساط التربوية. ولكن أسس تلك الأهداف مأخوذة من عطاء القرآن الكريم. وحتى لا نتهم بالخطابية فإننا نضرب مثالاً على ذلك: فإذا اعتبرنا "التقوى" مثلاً غرضاً تربوياً عريضاً، أو هدفاً أو غاية استناداً إلى قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} أو {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، فمن الممكن في الخطوة التالية أن نضع تعريفاً جامعاً مانعاً للتقوى مستخلصاً من صفات المتقين بعد تحليلها موضوعياً من جميع أماكن ورودها في القرآن. وفي خطوة تالية نحول ذلك التعريف إلى خطوات إجرائية ملموسة يمكن قياسها. وفي الخطوة الأخيرة نوزع تلك الخطوات الإجرائية على مناهج المواد الدراسية المختلفة أو على المراحل التعليمية المختلفة.. وهكذا.

التصور الثاني: الطبيعة البشرية في ضوء القرآن الكريم:

الإنسان هو محور العملية التربوية الذي تدور حوله، فالطفل المتعلم إنسانٌ بالدرجة الأولى يفرح، ويألم، ويحب، ويكره، وله طموحاته، وميوله، ويختلف كل فرد عن الآخر بدرجات متفاوتة من الاختلاف في كل ناحية من نواحي شخصيته. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الطبيعة البشرية كجزء أساسي من أي دراسة تخوض فلسفة التربية باعتبار الإنسان هو "الخامة" الأساسية للعمل التربوي.

وتتناول دراسة الطبيعة البشرية عناصر عديدة أهمها:

١- أثر كل من الوراثة والبيئة في تكوين الإنسان.

٢- الاختلاف بين الذكور والإناث: أنواعه -اتجاهاته- آثاره.

٣- هل الإنسان مسيّر أو مخيّر؟.

٤- أيهما أكثر تأثيراً في السلوك: الجسم أم العقل؟.

وقد قدمت الفلسفات التربوية المعاصرة آراء كثيرة لها في كل ناحية من هذه النواحي، وتناول تلك الآراء كثيرٌ ممن كتبوا في فلسفة التربية. ولكن الدراسات التي تعرضت لدراسة الطبيعة البشرية في القرآن الكريم ما تزال محدودة جداً. وفي تصورنا أن من الضروري قبل الشروع في وضع أسس للفكر التربوي الإسلامي تخصيص دراسة مستقلة لتجلية هذا الجانب الهام الذي هو -كما في البداية- محور العملية التربوية، فقد عرض الإنسان في القرآن منظوراً إليه من زاوية طبيعته البشرية من خلال:

أ - حديث القرآن عن الحواس: وظيفتها الأصلية، وإساءة استخدامها.

ب- حديث القرآن عن النفس: أنواعها - ودورها في السلوك.

ج- حديث القرآن عن دوافع السلوك: الوراثية، والبيئية.

د - حديث القرآن عن الحرية والاختيار في حياة الإنسان: وهي قضية نالت حظها من الدراسة على أيدي علماء الكلام ورجال الفرق والمفسرين.

التصور الثالث: الجوانب المعرفية في القرآن الكريم:

تتناول مباحث نظرية المعرفة الجوانب التالية بوجهٍ عام:

١- طبيعة المعرفة (ماهيتها).

٢- مصادر المعرفة: (العقل الحواس- الوحي- الحدس- العقل والحواس معاً).

٣- أنواع المعرفة.

وتأتي أهمية دراسة نظرية المعرفة كجزء أساسي من أي فلسفة تربوية، من كون التربية بطبيعتها عملية نُقل معارفْ إلى جانب كونها عملية اكتساب مهارات وعملية خلقية. والملاحظ حالياً أن الاتجاه المسيطر على النظم التربوية المعاصرة هو تغليب الجانب المعرفي على الجانبين الآخرين: المهاري والخلقي على الرغم من النداءات المتكررة لرجال التربية الحديثة بضرورة إيجاد توازن ما بين الجوانب الثلاثة.

ومع الانفجار المعرفي السائد حالياً تصبح عملية "اختيار" ما يقدم في المناهج المدرسية عملية في غاية الصعوبة. ففي العصر الحاضر "يتضاعف العلم في أوربا كل خمسة عشرة سنة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية كل عشر سنوات، وفي روسيا كل سبع سنوات، وفي الصين كل خمس سنوات؛ مما يدل على أن التنافس العلمي العالمي حالياً أصبح يجري بصورة تشبه السباق إن لم نقل الصراع".

والحقيقة أن البحث عن "نظرية" للمعرفة في القرآن الكريم أمرٌ لازمٌ لإبراز الهوية الحضارية للمجتمعات الإسلامية، وأمرٌ حتمي لإبراز "الذات" الخاصة للتربية في الشعوب الإسلامية.

وفي تصورنا أن مثل هذا البحث يمكن أن يتناول الجوانب التالية:

أ - طرق اكتساب المعرفة في القرآن (الدعوة إلى إعمال العقل -عدم إنكار دور الحواس في اكتساب المعرفة -التركيز على دور الوحي والإلهام ..إلخ).

ب- ماهية المعرفة في ضوء القرآن (فتح المجال أمام جميع العلوم مع مراعاة المعيار الشرعي في النفع والضرر على نحو ما توضحه كتابات التربويين القدامى كالغزالي وغيره).

ج- تصنيفات المعرفة القرآنية:

١- القرآن وعلوم الحياة (البيولوجيا: الحيوان والنبات والحشرات).

٢- القرآن وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

٣- القرآن وعلوم اللغة.

٤- القرآن والبحث التاريخي.

٥- القرآن وعلم الطبيعة (الفيزياء: الجوامد، الحرارة، الطاقة، الكتلة، الزمن.. إلخ).

٦- القرآن والعلوم الرياضية (الحساب- الفلك- النجوم.. إلخ).

التصور الرابع: التربية في القصص القرآني:

على الرغم من أن هذا الجانب نال قسطاً أوفر من الدراسات التربوية الحديثة إذا قورن بالجوانب السابقة، فإنه ما زال يفتقر إلى دراسات أكثر عمقاً تتناوله من عدة زوايا جديدة لم تُطرق حتى الآن مثل:

دراسات تربط بين عطاء علم اللغة الحديث الذي يدرس 'الأسلوب' وفقاً للمناهج الحديثة 'التركيب النحوي والصرفي والصوتي والدلالي' وعطاء علوم النفس والتربية من أجل استنباط محتوى تربوي أكثر عمقاً.

دراسات تتناول القصص القصيرة جداً في القرآن والتي لم تتوقف عندها الدراسات السابقة كثيراً مثل قصص (سبأ وسيل العرم- الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت -الصافنات الجياد- بناء الكعبة- القوم الجبارين- أصحاب الجنة (سورة ن)- صاحبي الجنتين (سورة الكهف)- وغيرها).

دراسات تتناول القصص النبوي الذي جاء لتوضيح قصص قرآني مجمل، أو القصص النبوي الذي جاء تفسيراً لآيات قرآنية غير قصصية أو بها إشارات سريعة.

دراسات تتناول القصص القرآني موضوعياً مقارناً من خلال عدة تفسيرات ذات اتجاهات (تفسير بالمأثور- تفسير بالرأي- تفسير إشاري- تفسير إجمالي).

أما بعد:

فلعل في السطور السابقة إشارة كافية للإمكانات البحثية التي ما تزال بكراً في مجال القرآن الكريم والفكر التربوي. أردنا بها فتح الباب أمام طلاب البحث العلمي الصابرين الصادقين، الذين سيجدون صعوبات جمّة في هذا الطريق، ولكن إيمانهم بقيمة ما سيصلون إليه من نتائج قيّمة مفيدة يعصمهم من الملل والزلل.

آي القرآن المتشابهات:

تثير آيات القرآن الكريم المتشابهة لغطاً كثيراً بين طلاب العلم لا سيما الذين يهجمون على الإفتاء - منهم- بغير علم. كما أن تلك الآيات المتشابهة تستوقف القارىء أو السامع العادي الذي لم يؤت حظاً من العلم بعلوم القرآن الكريم فيفكر فيها وربما قاده تفكيره إلى إساءة فهم المراد بتلك الآيات.

والسطور القادمة تسعى إلى كشف ما قد يكون بين بعض الآيات من تشابه، وبيان ما بينها من فروق دقيقة ذكرها العلماء ممن رزقهم الله تعالى البصر والبصيرة فتدبروا آيات الله ووقفوا على أسرارها وأوضحوا ما بينها من روابط تجعل التعبير القرآني خير قدوة للقارئين والكاتبين.

* يقول الله تعالى:

﴿فيما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يُحرِّفون الكلِمَ عن مَوَاضِعِه وَنَسُوا حظا مما ذُكرُوا به﴾ [المائدة / ١٣] .

ثم قال في السورة نفسها :

﴿سمّاعون للكذب سَمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك. يُحرِّفون الكلِمَ من بعد مواضعه﴾ [المائدة / ٤١] .

فما سبب الاختلاف بين الآيتين، أو بالأحرى بين الجملتين اللتين تتحدثان عن تحريف الكلم؟ لم قال مرة (عن مواضعه) ومرة (من بعد مواضعه) والسورة واحدة ؟.

في مثل هذه الحالات التي يبدو فيها التشابه بين الآيات قوياً ملحوظاً يحسن بنا أن نعود إلى السياق العام الذي وردت فيه كل من الآيتين: وسنرى أن الآية الأولى نزلت في شأن اليهود الذين حرفوا كلام الله ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به كما دلت عليه الآية السابقة للآية التي بين أيدينا إذ تقول الآية السابقة لها:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي

وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم، ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ [المائدة/ ١٢]

ومن المعلوم أنهم بعد هذا الميثاق تطاول بهم العهد وهم ينقضون الميثاق يوماً بعد يوم، فلا عبدوا الله، ولا وقّروا رسله بل قتلوهم، ولا أقرضوا الله قرضاً حسنا.. فجاءت الآية التالية مصدرة بالفاء التي تفيد التعقيب وبالباء التي تدل على السببية في قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) أي بسبب نقضهم ميثاقهم حلت عليهم اللعنة.

وهنا كان لا بد للسياق القرآني أن يستخدم (عن) في قوله (يحرفون الكلم عن مواضعه). لأن (عن) في اللغة العربية موضوعة "لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه" أي أن تحريفهم لكلام الله ونقضهم لميثاقه لم ينتظروا به طويلاً، بل حدث هذا منهم قريباً من نزول هذه التعاليم إليهم. فمجاورة زمن التحريف لزمن التكليف وقربه منه جاء بالحرف (عن) للدلالة على تجاور الزمنيين.

أما الآية الثانية: ﴿**يحرفون الكلم من بعض مواضعه**" فقد وردت في سياق آخر يوضحه نص الآية كاملاً. إذ يقول تعالى: "**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا. سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعض مواضعه يقولون: إن أوتيتم هذا فخذوه. وإن لم تؤتوه فاحذروا. ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا**

أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [المائدة/ ٤١]

فالسياق الكامل للآية يدل على أنها نزلت في قوم مخصوصين من اليهود على زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تحالفوا مع قوم من المنافقين ممن قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وقد أرسل هؤلاء وفداً للنبي صلى الله عليه وسلم يسألونه عن حكم زانٍ محصن، وقالوا للوفد: إن أفتاكم محمد بالجلد فأقيموا الحد، وإن أفتاكم بالرجم فلا ترجموا الزاني. فجملة (إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) وهي مقول قولهم لوفدهم-كما يظهر من الآية- جملة تفسيرية للجملة السابقة عليها: "يحرفون الكلم من بعد مواضعه" لأنهم فعلوا هذا وعندهم التوراة فيها حكم الله معروف لهم في الجلد والرجم فأنكروه ونصحوا وفد المستفتين نصحاً يخالف ما استقر عندهم من شرع الله. فهنا جاءت (بعد) لتدل على استقرار كلام الله عندهم: أي من بعد طول عهد بهذا الكلام الذي يحرفونه عمداً. لأن (بعد) تفيد استقرار حكم ما بعدها.

* ويقول الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾** [الأعراف/ ١٠٧].

وقال في موضع آخر:

﴿تهتز كأنها جانّ... ﴾ [النمل/ ١٠].

قد يتوهم بعض طلاب العلم أن بين الآيتين تناقضاً، وحاشا لله تعالى، فكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لكن سياق

الآيتين مختلف. فالآية الأولى جاءت في سياق حوار برزت فيه قمة التحدي بين رسول الله موسى عليه السلام من جهة، وفرعون وسحرته وجنوده من جهة أخرى. وكان سحرة فرعون يسترهبون الناس بتحويل عصيهم إلى ثعابين وحيات تسعى. فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقي عصاه وهي –بقدرة الله تعالى– ستتحول إلى ثعبان عظيم يلقف في جوفه كل ثعابينهم المزعومة. لتكون آيته التي سأله عنها فرعون –في السياق– من جنس آيات سحرة فرعون.

أما الآية الأولى فقد وردت في سياق أول حوار وقع بين رب العزة جل شأنه وبين موسى عليه السلام حين ناداه ربه بالوادي المقدس –للمرة الأولى– فكان اهتزاز العصا شديد الوقع على نفس موسى عليه السلام حتى بدت له كما لو كانت جنًّا يهتز. وحين نقرأ الآيات كاملة ندرك مدى الرعب الذي حاق بهذا النبي عليه السلام حين توالت عليه المفاجآت!!!

قال تعالى:

﴿فلما جاءها نودي أنْ بُورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب، يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديَّ المرسلون﴾ [النمل/ ٨-١٠].

* يقول الله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ما ضلَّ صاحبكم وما غوى﴾ [النجم/ ٢].

وقال الله في موضع آخر مخاطباً رسوله الكريم:

﴿ووجدك ضالاً فهدى.. ﴾ [الضحى/ ٧].

فكيف نوفق بينهما؟؟

والجواب أن الضلال المراد في سورة النجم هو الضلال في الدين وفي أمور العبادة والنبوة والإخبار عما في الغيب. والغواية بمعنى اتباع الهوى. فالنفي هنا لتأكيد أمانة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ عن ربه، وصدقه المُطلق في كل ما يأتي به قومه من أمور الدين الموحاة إليه من ربه.

أما الضلال الوارد في سورة الضحى فالمراد به الضلال في شؤون الدنيا المضطربة آنذاك –قبل المبعث– فقد كان محمد عليه السلام يرى قومه –قبل المبعث– على غوايتهم يعبدون الأوثان ويعظمون شأنها. فيحار بين ولائه لقومه، وبين ما تأباه فطرته السليمة من أمور عبادتهم. فتصيبه من ذلك حيرة طال عهدها به حتى كان يلجأ إلى الغار يتأمل السماء والنجوم ويدرك أن لهذا الكون خالقاً أعظم. فعبَّر عن فترة القلق والحيرة تلك بالضلال تشبيهاً لحاله –صلى الله عليه وسلم– أثناءها بحال السائر في الصحراء على غير هدى لا يعلم طريقه. فالضلال هنا غير الضلال هناك.

* قال تعالى:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ [آل عمران/ ١٤٤].

فكيف يقول (مات أو قتل) مع أنه أخبر في آية أخرى أنه لن يقتل وذلك حيث يقول سبحانه **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** [الزمر/ ٣٠].

وحيث قال: **﴿والله يعصمك من الناس﴾** [المائدة/ ٦٧].

والجواب عن ذلك أن صدق القضية الشرطية لا يتطلب صدق جزأيها، فحين يقول الله تعالى: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾** [الأنبياء/ ٢٢].

القضية في أصلها صادقة: أي لو وجدت آلهة أخرى لعم الفساد لكن جزأيها كاذبان فلا آلهة ثم ولا فساد.

فليس معنى الآية أن الارتداد على الأعقاب مرتبط بحالتي الموت أو القتل فقط. بل هو واقع لا محالة.

وقال الألوسي في هذا المضمار قولاً شافياً حين قال:إن كلمة (إنْ) لا تجري في كلام الله تعالى على ظاهرها بإيراد الشك في علمه تعالى بالوقوع وعدم الوقوع. بل يُحمل الشك على اعتبار حال السامع، أو ما يناسب المقام، وقد وردت (إنْ) هنا -أي في هذه الآية- لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لعظم ما ذكر لهم. (روح المعاني/ ٤/ ٧٧)

قال تعالى:

﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به.. ﴾ [آل عمران/ ١٢٦].

وقال في سورة الأنفال:

﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم... ﴾ [الأنفال/ ١٠].

وقد يتوقف القارئ أو السامع أمام هاتين الآيتين فيلاحظ أن الجار والمجرور (لكم) جاءت بعد البشرى في آل عمران ولم ترد في الأنفال. وإن الجار والمجرور (به) قد جاءت بعد القلوب في آل عمران وجاءت قبلها في الأنفال. فما السر؟

إن تأمل السياق الذي وردت فيه كل آية من الآيتين يدل على سر ورودها على هذا النحو. فآية آل عمران جاءت إخباراً للمؤمنين بما تحقق لهم من عونٍ من عنده سبحانه في غزوة بدر على نحو ما يظهر من الآيات السابقة على هذه الآية (لقد نصركم الله ببدر..)

أما آية الأنفال فقد وردت في سياق يدل على أن المؤمنين استغاثوا وطلبوا العون من الله. حيث يقول تعالى:

﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...﴾ فلما جاءت (لكم) ملتصقة بالاستجابة الفورية لاستغاثتهم. أغنى ذلك عن مجيئها مع البشرى.

وأما تأخير (به) بعد (قلوبكم) فلأنه لما أخرَّ الجار والمجرور في الكلام الأول (بشرى لكم) وعطف الكلام الثاني عليه، أخر الجار والمجرور في الثاني كما أخره في الأول.

وأما تقديم (به) في الآية الثانية فلأن نفوس المؤمنين -وهم في حال كرب واستغاثة- أحوج ما تكون إلى التثبيت والطمأنينة.

والضمير في (به) عائد على إنزال الملائكة الذي هو موضوع البشرى. فتقديم الجار والمجرور هنا –وهو ساد مسد المفعول به– أدعى لتهدئة تلك النفوس المتطلعة إلى نصره وعونه.

لا ترادف في القرآن:

تمتاز لغة القرآن الكريم بالدقة المتناهية في بنائها الذي يترتب عليه دقة فهم الدلالات المقصودة بهذا البناء اللغوي أو ذاك، ومن هنا اختلف اللغويون قديماً وحديثاً في إثبات الترادف حيناً ونفيه حيناً آخر، ومقارنة الآيات المتشابهة والجدل فيما هو محكم أو متشابه من الآيات، كما اختلفوا فيما يتحقق به الإعجاز: أهو آية أو كلمة أو حرف أو بضع آيات أو سورة؟ وقد أثمرت تلك الخلافات تراثاً لغوياً وبلاغياً ثرياً ما زال الباحثون ينهلون منه في كل عصر.

ومع التسليم بأن الكلمة الأخيرة في مثل تلك القضايا الخلافية لم تُقِلْ، ولا يمكن أن تقال بحكم استمرارية إعجاز القرآن –لاسيما في جانبه اللغوي والبلاغي– فسوف تحاول السطور القادمة تحليل نماذج من دقة الأسلوب القرآني وبراعة دلالاته المعنوية.

*** الاستفهام بـ (ما) و بـ (ماذا) ليس واحداً:**

إذا قلت لشخص مستفهماً: (ما بك يا فلان؟) أو قلت :(ماذا بك يا فلان؟) فهل يكون الاستفهام في الحالين واحدا؟. ظاهر قواعد اللغة يوحي بذلك. إذ إن الاستفهام بـ (ما) إنما يكون عن حقيقة الشيء. وقد ورد في القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله تعالى:

﴿واتلُ عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه: ما تعبدون؟ قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ [الشعراء / ٦٩-٧١].

وقال عنه أيضاً:

﴿وإن منْ شيعتِه لإبراهيم. إذْ جاء ربَّه بقلبٍ سليم. إذ قالَ لأبيه وقومه ماذا تعبدون؟. أئِفكاً آلهةً دون الله تريدون؟!.﴾ [الصافات / ٨٣-٨٧].

ففي الآية الأولى (ما تعبدون) تقديرها: أيُّ شيء تعبُدون؟ أي أنها سؤالٍ عادي غايته طلب معرفة الجواب، بدليل أن قومه أجابوه فقالوا: "نعبد أصناماً". أما (ما) في قوله (ماذا تعبدون) فإنها جاءت مركبةً مع (ذا) فكانتا معاً اسماً واحداً (ماذا) والهدف من استعماله ليس لطلب معرفة الجواب، وإنما لتقريعهم وتوبيخهم. والدليل على ذلك أنه لم ينتظر منهم جواباً. بل أجاب نفسه بسؤال استنكاري آخر (أئفكاً آلهة دون الله تريدون؟).

فكان (ما) في (ما تعبدون) اسم استفهام، وهي وما بعدها مبتدأ و خبر . أما (ما) التي أضيفت لها (ذا) فصارتا معاً (ماذا) اسماً واحداً فكأنها في محل نصب "حال" تقدم على الفعل والتقدير: تعبدون أيَّ شيء؟.

قال الإسكافي "لما بالغ وقرَّع استعمل اللفظ الأبلغ، وهو (ماذا) التي إن جُعلت (ذا) منها بمعنى الذي فهو أبلغ من (ما) وحدها وإن جُعلا اسماً كان أيضاً أبلغ وأوكد مما إذا خلت من (ذا)". [الخطيب الاسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٩٧٩].

والخلاصة أن (ما) و (ماذا) اسما استفهام. وكذلك إذا أردت الاستفهام على حقيقته استخدمت (ما) وإن خرجت بالاستفهام إلى غرض بلاغي آخر كالتوبيخ أو الاستنكار استخدمت (ماذا).

* وزنا : فَعَّل وأَفْعَلَ :

القاعدة اللغوية المشهورة هنا أن الفعل الرباعي المزيد بالتضعيف أو بالهمز يدل على معنى التكثير والمبالغة. فإذا زدنا فعلاً ثلاثياً مثل (كَرُمَ) لنجعله رباعياً قلنا: كرَّمته وأكرمته بالتضعيف وبالهمز على التوالي.

ولكن قارىء القرآن الكريم يلاحظ أن الأسلوب القرآني يستعمل المضعف والمهموز تبعاً لمقتضى السياق، فيستعمل الفعل "وصَّى" غالباً مع الأمور الدينية المعنوية مثل:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه.. ﴾ [العنكبوت / ٨] .

﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب .. ﴾ [البقرة / ١٣٢].

في حين يستخدم وزن أفعل (أوصى) مع الأمور المادية كقوله تعالى:

﴿يوصيكم الله في أولادكم: للذكر مثل حظ الأنثيين..﴾ [النساء/ ١١].

فإذا كانت هذه قاعدة مطردة فكيف قال تعالى **﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾** (مريم / ٢١) على لسان نبي الله يحيى ؟ مع أن هذه أمور دين وعبادات؟.

قال بعض الباحثين (لاقتران الصلاة بالزكاة) أي لأن الزكاة من المعاملات المادية فقد تغلب وجودها على السياق. ومنه استعمال (نجّى) و (أنجى) فإن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل في التنجية. ويستعمل (أنجى) في الإسراع بها . قال تعالى:

﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم واغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [البقرة / ٤٩- ٥٠]

فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل (أنجى) بخلاف البقاء مع فرعون فإنه استغرق وقتاً طويلاً ومكثاً فاستعمل (نجّى). [د. فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة، عمان: دار عمار، ١٩٩٩].

*** العطف ليس حتمياً:**

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والصابِئُونَ وَالنَّصَارَى: مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [المائدة/ ٦٩].

وردت كلمة (الصابئون) في هذه الآية مرفوعة، وظاهر السياق يدل على أنها معطوفة على المنصوبات اللواتي سبقنها لأن (الذين أمنوا والذين هادوا) في محل نصب اسم (إن) التي في صدر الآية. وجميع القراءات السبع تجعل كلمة (الصابئون) مرفوعة كما هي عليه في رسم المصحف. لذلك اجتهد النحاة والمفسرون في إيجاد تفسير لهذه المغايرة الإعرابية التي تستوقف القارئ والسامع للكتاب الكريم.

وقد وردت كلمة (الصائبون) منصوبة في سياقين آخرين في كتاب الله الكريم، ففي سورة البقرة ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون**﴾ [البقرة/ ٦٢].

وفي سورة الحج ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا: إن الله يفصل بينهم يوم القيامة....**﴾ [الحج/ ١٧].

فإذا أردنا أن ندرك سر رفع (الصابئون) وهي في موضع العطف على اسم إن في الآية التي بين أيدينا، فلننظر في السياقين الآخرين اللذين

وردت فيهما تلك الكلمة منصوبة. لنلاحظ أنها في أية المائدة –التي نحن بصددها– ارتفعت بالواو وهي متقدمة على كلمة (النصارى) بعدها. لأن الصابئين أقدم وجوداً من النصارى. وقد شملت الآية أربع طوائف (الذين آمنوا– اليهود– النصارى– الصابئة) ثلاث طوائف منها أهل كتب سماوية. والصابئة ليسوا بأهل الكتاب بل كانوا يعبدون الكواكب والنجوم. فجاء رفع الكلمة ليظهر اختلاف هذه الطائفة عن الطوائف الثلاث. وجاء تقديمها على النصارى مراعاةً لكون الصابئة أقدم عهداً من النصارى.

ويرى بعض الباحثين بان من الممكن تفسير هذه المغايرة الإعرابية بأن الصابئين يتوب الله تعالى على من آمن منهم. وهو دفع موضع التوهم [أي نفي فكرة عدم التوبة] بأن الله تعالى لا يتوب على أحد منهم لأنهم عبدوا النجوم ولم يُعهد من أمرهم أنهم كانوا يتأولون....". [د. فاخر هاشم الياسري، "المغايرة الإعرابية وأثرها في المخالفة الأسلوبية" مقال منشور في مجلة دراسات إسلامية العدد العاشر، السنة الثالثة، ٢٠٠٢م، بغداد: دار الحكمة، ص١٠].

وذهب بعض القدامى مثل الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ) مذهباً فريداً في تأويل هذه الآية خلاصته انه ليس من المستساغ أن يقال: (إن الذين آمنوا.... من آمن بالله) فإذا كانوا قد وُصفوا بأنهم آمنوا في صدر الآية فلا وجه لإعادة الصفة، بل المعنى: إن الذين آمنوا بكتب الله المقدسة المتقدمة مثل: صحف ابراهيم، والذين آمنوا بما نطقت به التوراة

وهم اليهود، والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل وهم النصارى، قال: "ثم أتى بذكر (الصابئين) وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم".

فخلاصة رأيه أن آية البقرة جاءت على ترتيب الكتب السماوية، والمقصود فيها -عنده- بالذين آمنوا: الذين آمنوا بصحف ابراهيم- عليه السلام- وأما آية المائدة- التي نحن بصددها- فجاءت على ترتيب الأزمنة قال: "فرفع (الصابئون) ونُوي به التأخير عن مكانه، كأنه قال بعدما أتى بخبر الذين آمنوا والذين هادوا وهو (من آمن منهم...الخ) والصابئون هذا حالهم أيضاً. وهذا مذهب سيبويه".

وقال تعالى في وصف الكافرين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة/ ١٧].

إن الضمير الجمعي في كلمتي (نورهم- تركهم) وكذلك واو الجماعة في كلمة (يبصرون) تتعلق جميعاً بكلمة (الذي) في أول الآية. فهنا حدثت مغايرة إعرابية إذ عاد ضمير الجماعة على المفرد. فما سر هذه المغايرة؟ وهل أضافت قيمة دلالية عما لو سار السياق كله على المفرد فقيل -مثلاً- (ذهب الله بنوره وتركه في ظلمات لا يبصر)؟.

إن أقوال القدماء من العلماء في تفسير هذه المغايرة تدور -في معظمها- حول قضية (الحمل على المعنى) أي أن معنى الآية متعلق بالكافرين فجاء اللفظ بصيغة الجمع حملاً للفظ على معناه المقصود.

غير أن هذه الرؤية، وإن كانت صحيحة، لا تشفي الغليل، فاللغة العربية تسمح أساساً بأن يعامل المفرد معاملة الجمع كما في قول الشاعر القديم:

وإن الذي حانت بفلجٍ دماؤهم

هم القوم كل القوم يا أمَّ خالد

وقد ورد هذا في القرآن الكريم في مواضع شتى منها قوله تعالى:
﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء.....﴾ [النور/ ٣١].

وما حوتْ العربية هذا الخصيصة إلا لعلة بيانية هي ما نسعى إلى تلمسه في هذه الآية الكريمة التي أتت بعد عدة آيات تحدثت عن الكافرين ومكابرتهم وإصرارهم على الاستهزاء بدعوة الرسل. فشبّه الله تعالى موقفهم في هذه العنجهية والمكابرة بموقف الذي ذهب مع أصحابه يرود لهم الطريق فأشعل ناراً يستضيء -هو وقومه- بنورها فأتت ريح أطفأت نارهم فتخبطوا في الظلام حائرين عاجزين مذهولين.

ومن هنا، كان للمغايرة الإعرابية -من إعادة ضمير الجماعة على المفرد (اسم الموصول) قيمة دلالية جديدة إذ أوحى السياق- بهذه البنية اللغوية- بأن ما يتذرع به الكفار من حجج إن هو إلاّ وهم باطل، وأنه لا فارق بين كفر وكفر، فزعيمهم الذي يستوقد لهم النار سيناله ما ينالهم من حيرة واضطراب وعجز وذهول حين يكتشف -معهم- أن لا أمل لهم في

نجاة، فالظلمات تحيط بهم جميعاً من كل مكان. وفي إعادة الضمير الجمعي على المفرد إيذان بتحمل هذا الفرد مسؤولية إضلال قومه، وكشف له أمامهم، وبيان ما هو عليه من ضعف وذل. وفوق هذا كله. فقد بدأت الآية بالجمع [مثلهم...] وانتهت بالجمع [يبصرون] وراوحت في ثناياها بين الأفراد والجمع –مع الحفاظ على مستوى الزمن– مما أكسب التعبير حيوية وتجدداً في عطائه الدلالي للسامع والقارئ.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح ١٠].

هذه هي قراءة حفص عن عاصم التي عليها رسم المصحف بضم الهاء من كلمة (عليه) وهو الموضع الوحيد في القرآن الذي ورد بهذا الضبط وما عداه لا يرد إلا بكسر الهاء إذا سبقها حرف الجر (على). وهذه [بالضم لغة أهل الحجاز، وبقية العرب يكسرون الهاء.

يقول العلماء إن الضمة ثقيلة النطق لأن النطق بها يحتاج إلى جهد عضلي أكثر من الكسرة والفتحة وذلك لأنها لا تُنطق إلا بانضمام الشفتين وارتفاعهما ولا تحتاج الكسرة ولا الفتحة إلى ذلك.[د. فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، عمان: دار عمار، ١٩٩٩م، ص١١٥. نقلاً عن: المحتسب لابن جني ٢/١٨-١٩ وغيره.]

وقد وردت هذه النقطة في سياق آية تحدثت عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم –يوم الحديبية وكانت بيعتهم على الموت في سبيل نصرة الرسول– صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

لذلك جاءت الهاء مضمومةً في هذه الكلمة، في هذا الموضع فقط، لكي يظهر من مخالفتها المألوف من الإعراب مدى ثقل العهد الذي تضمنته تلك البيعة العظيمة التي نسبها الله تعالى إلى نفسه وجعل يده فوق أيدي المؤمنين إذ قال جل شأنه: **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما﴾** [الفتح/ ١٠].

ثمّ إن الضمّة – كما يقول الدكتور فاضل السّامرائي ناقلاً عن الألوسي– يُنطق بعدها لفظ الجلالة مفخّماً بخلاف الكسرة فإنّها ينطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام.

فجاء بالضم ليتفخم النطق بلفظ الجلالة، إشارة إلى تفخيم العهد، فناسب بين تفخيم العهد و تفخيم الصوت.

وقال تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام و هو يقص رؤياه على أبيه يعقوب عليه السلام: **﴿و الشَّمْسَ و القَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجدين ﴾** [يوسف:٤] والمعروف في قواعد اللغة أن الجمع بالياء والنون والواو والنون إنما يكون للعقلاء، والمرئيات التي رآها يوسف عليه السلام من الكواكب والشمس والقمر ليست من ذوي العقول. بل هي جمادات.

قال العلماء: قد يكون عبَّر عن لسان الحال بالكلام، فقد يُطلق الكلام على لسان الحال كما قال الشاعر القديم:

شكى إليَّ جَمَلِي طولَ السُّرى

وكما قال الشاعر نصيب:

فعاجـوا فأثنوا بالذي أنت أهلُه

ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

وقال بعض العلماء: "لما وصفت [الكواكب والشمس والقمر] بصفات العقلاء وهو السجود. أجريت مجراهم فجمعت صفتها جمع العقلاء. [محمد امين بن خيرالله الخطيب العمري (ت١٢٠٣هـ) تيجان البيان في مشكلات القرآن، تحقيق حسن مظفر الرزو. طبعة جامعة الموصل، ١٩٨٥، ص١٨٥].

وقال الألوسي "وإنما أجريت هذه المتعاطفات مجرى العقلاء في الضمير [أي في قوله: "رأيتهم"] جمع الصفة لوصفها بوصف العقلاء. وإعطاء الشيء الملابس لآخر من بعض الوجوه حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة....شائع في الكلام".

ومع ذلك فإن في العدول عن وصف الكواكب والشمس والقمر بما ينبغي لها، ووصفها بصفة العقلاء إشعاراً للقارئ والسامع بان الإيمان بالله يحوّل القلوب الغافلة والعقول التائهة من حال التيه والزيغ إلى حال الإدراك والاستقرار. فالكفار الذين شبههم القرآن الكريم بأنهم كالأنعام أو أضل، لو آمنوا وعبدوا وركعوا وسجدوا، كانوا كمن انتقل من حال الحيوانات والجمادات إلى حال البشر العقلاء الذين وصلوا أرواحهم بربهم وأنابوا إليه.

ومن جهة أخرى، فقد يكون نبي الله يوسف عليه السلام قد قصَّ ما رآه لأبيه على سبيل الحقيقة. فقد كان إذ ذاك طفلاً. والطفل قد يرى في منامه الأشياء على غير حقيقتها. فقد يرى للكواكب والنجوم وجوهاً ورؤوساً وأيدياً وأرجلاً. ويراها تركع وتسجد ويُلقى في روعه أن هذه وتلك: الشمس والكواكب تتحرك نحوه ومومئةً ساجدة. ولذا لم يستنكر يعقوب عليه السلام من طفله هذه الرواية. بل أدرك ما وراءها وعرف أن لابنه مستقبلاً إيمانياً طيباً. على نحو ما يبين في سورة يوسف بعد ذلك.

وقال تعالى متحدثاً عن أبي لهب: ﴿وامْرَأَتُه حَمَّالَةَ الحَطَبْ في جِيدِهَا حَبلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ٤،٥].

قراءة حفص عن عاصم وعليها رسم المصحف بفتح كلمة (حمالةَ) وقد قال النحاة في هذه القراءة: إن كلمة (حمالة) منصوبة على أنها مقطوعة عما قبلها على تقدير: أذمُّ حمالةَ الحطب.

وقال مكي بن أبي طالب: "هذه المرأة كانت قد اشتهرت بالنميمة، فجرت صفتها على الذم لها، لا للتخصيص. وفي الرفع ذم. ولكنه في النصب أبين. لأنك إن نصبت لم تقصد أن تزيدها تعريفاً وتبييناً. إذ لم تجر الإعراب على مثل إعرابها. وإنما قصدت إلى ذمها لا لتخصيصها من غيرها بهذه الصفة التي اختصصتها بها. [مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن، ٢/ ٨٥١]

ومن النماذج السابقة يتبين لنا أن القرآن الكريم حين يخالف في سياق آياته بين إعراب مألوف وإعراب غير مألوف. إنما يكون ذلك لهدف

يتعلق بمرمى السياق وغاية الآية، وتبرز من وراء تلك المغايرة الإعرابية قيم دلالية جديدة لا يستنبطها إلا الذين يتلون كتاب الله وهم متطلعون لما فيه من أسرار تعبيرية تدق على الافهام ومن هنا جاء الأمر –فيما يخص قراءة القرآن– بالتدبر: أي بذل الجهد في استقصاء معانيه ومراميه. لا بمجرد التلاوة في حالة يكون فيها القلب غافلاً عن التدبر.

التفسير الموضوعي وحاجة الباحث التربوي إليه

بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، أصبحت لدى المسلمين حاجة ماسة إلى الاجتهاد في تفسير القرآن الكريم ومعرفة مقاصده ومعانيه بعد أن غاب نور الرسول الكريم ﷺ الذي كانوا يفزعون إليه إذا شقّ عليهم فهم آية من الآيات.

وقد أدى ذلك بالصحابة إلى الاجتهاد في التفسير بوصفهم تلاميذ المدرسة المحمدية وروادها الأوائل الذين أصبح الناس يلجئون إليهم لينهلوا من علومهم التي تلقوها عن المعصوم ﷺ .

كما ساعدت عوامل أخرى على بدء النشاط العلمي في مجال التفسير، ومن أهم هذه العوامل:

١ – اتساع الدول الإسلامية بعد الفتوح المتكررة للبلدان الجديدة مما ترتب عليه:

أ– تفرقة الصحابة في البلاد المفتوحة لتعليم المسلمين الجدد المقبلين على اعتناق الدين الجديد.

ب- زيادة حاجة المسلمين إلى التعليم بازدياد أعدادهم يوماً بعد يوم.

٢- تناقص أعداد الصحابة يوماً بعد يوم بالوفاة أو الاستشهاد مما أدى إلى أهمية نقل المرويات الواردة في تفسير بعض الآيات أو اجتهادات الصحابة في تفسيرها إلى جيل تال هو جيل التابعين من أكابر العلماء الذين أدركوا الصحابة وتعلموا منهم ونقلوا عنهم آراءهم واجتهاداتهم.

٣- تعقد الفتوى بسبب ما كان يحدث من مواقف وأحداث ترتبط بعادات وتقاليد البلاد المفتوحة ولم ترد فيها نصوص تشريعية عن النبي ﷺ .

٤- تأخر ظهور الكتابة والتوثيق عند المسلمين والاعتماد فقط على الرواية أدى إلى تشجيع البحث في التفسير بسببين هما:

* الوفيات التي ينقص بها عدد الصحابة يوماً بعد يوم
* اختلاف الصحابة في فهم بعض الآيات تبعاً لتفاوت قدراتهم من جهة اللغة وتبعاً للمواقف المختلفة التي عاشها كل منهم مع النبي ﷺ .

تخوف الصحابة من التفسير:

ومع المكانة الجليلة التي تبوأها الصحابة في نفوس المسلمين فإنهم كانوا- لشدة ورعهم- يتخوفون من تفسير القرآن الكريم ومن أشهر ما

روي في ذلك قول أبي بكر الصديق ﷺ : (أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ وكيف أصنع؟ إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى؟). ولعل مرجع هذا التخوف يعود إلى تلك الأحاديث النبوية الكثيرة التي سمعها الصحابة من الرسول ﷺ يحذّر فيها من القول في كتاب الله تعالى بغير علم أو قال في تفسير آية من القرآن بهواه.

وقد خرج الصحابة من هذا المأزق بطريقين:

أولهما: التركيز على تحفظ القرآن خوفاً على ضياعه من الصدور بموت حفظته .

وثانيها: الاكتفاء بتفسير الآيات التي تتضمن أحكاماً فقهية تمس حياة المسلمين وتشتد حاجتهم إلى فهم معانيها، وتركوا ما دون ذلك وَرَعاً وزهداً.

مصادر الصحابة في التفسير:

وقد التزم الصحابة ﷺ في تفسيرهم القرآن الكريم منهجاً واحداً لا عوج له يعتمد على عدة أسس:

الأول منها: تفسير القرآن بالقرآن:

وهم في هذا الأساس يرجعون إلى ما روي عن النبي ﷺ حين كان يفسر القرآن كما روي عنه في تفسير قول الله تعالى ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّآلِّينَ**﴾[الفاتحة/ ٧]، حيث قال النبي ﷺ: (المغضوب عليهم

اليهود والضالون النصارى، وقد استمد الرسول ﷺ هذا التفسير من قوله تعالى متحدثاً عن اليهود: ﴿ ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ..﴾ [البقرة/ ٦١]. وقوله تعالى متحدثاً عن النصارى ﴿.. وَلاَ تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة/ ٧٧]. كذلك فسر الرسول ﷺ الظلم في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام/ ٨٢].بأنه الشرك ، واستشهد بقوله تعالى ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان/ ٣١].

وقد حذا الصحابة رضوان الله عليهم حذو رسول الله ﷺ في تفسير القرآن الكريم بالقرآن كما فعل عبد الله بن مسعود ﷺ أتيح له من فهم القرآن والإحاطة به فقد كان من أقرب الناس لرسول الله ﷺ ، يقول أبو مسوى الأشعري في ذلك: (إن كان ليؤذن له إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا).

والأمثلة كثيرة على تفسير ابن مسعود للقرآن بالقرآن، ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة/ ٦٢].يرد تسمية اليهود بهذا الاسم إلى قوله تعالى ﴿ ... إِنَّا هُدْنَـآ إِلَيْكَ ..﴾ [الأعراف/ ١٥٦]. ويرد تسمية النصارى بهذا الاسم إلى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام

وحوارييه ﴿ . . قَالَ مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران/ ٥٢].

الثاني: تفسير القرآن الكريم بالسنة:

وقد لجأ الصحابة ﷺ إلى تفسير القرآن الكريم بالسنة المحمدية المطهرة التي عاشوا أجواءها وأسهموا بمواقفهم المختلفة في صياغتها فكثير من مواقف التربية المحمدية كانت تعتمد على سؤال من صحابي أو سلوك بدر منه أو حادث يحدث بينهم. ومن أبرز الصحابة الذين اعتمدوا على السنة في تفسير القرآن الكريم السيدة عائشة رضي الله عنها؛ فقد روى لها ابن الجوزي ألفين ومائتين وعشرة من الأحاديث النبوية، ولعل ذلك راجع إلى عشرتها الزوجية التي أتاحت لها رواية الكثير من سنة الرسول ﷺ فقد عاشت معه تسع السنوات الأخيرة من حياته وكانت تلك السنوات في المدينة حيث شهدت معظم التشريع الإسلامي في مهد الدولة الإسلامية المزدحم بالأحداث الجسام.

ومثلما كانت السيدة عائشة تفسر القرآن بالسنة، كذلك كان يفعل غيرها من الصحابة كعبد الله بن مسعود ﷺ فقد فسر القرآن بالسنة، ومن ذلك إنه في تفسيره لقوله تعالى ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٢٣٠]. يأتي لقوله ﷺ : لعن المحلل والمحلل له، وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي

بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب/ ٣٣]. يروي قول رسول الله ﷺ : "المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان"، وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الجمعة/ ٩].يروي قول الرسول ﷺ : "لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم".

وإلى جانب هذين الأساسين: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، كانت هناك أسس أخرى للتفسير أخذ بها الصحابة منها:

٣- تفسير القرآن باللغة.

٤- تفسير القرآن بما ورد في الكتب السماوية وبخاصة في مجال القصص القرآني.

٥- تفسير القرآن في ضوء أسباب نزول الآيات.

وقد نتج عن هذا كله علم التفسير بالمأثور الذي بدأ تدوينه متأخراً إلى حد كبير، فقد ارتبط تدوين التفسير بتدوين الحديث. فبعد إحجام المسلمين عن تدوين الحديث خوفاً من التقول على رسول الله ﷺ، بدأ تدوين الحديث مع شيء من الحذر والتهيب والتحري إلى أن أصبح لدى المسلمين مجموعات موثقة بالرواية الشفوية المدققة من أقوال الرسول

ﷺ ، وشملت تلك المجموعات ما تعلق من أحاديث نبوية تناولت تفسير آيات معينة من القرآن الكريم، ثم لم يلبث هذا التدوين أن تفرع إلى أن أصبح علم التفسير علماً مستقلاً بذاته عن علم الحديث.

منهج التفسير بالمأثور وأشهر المؤلفات فيه:

ويتلخص منهج التفسير بالمأثور في جمع الروايات المتعلقة بآية من الآيات سواء أكانت تلك الروايات مقولة عن النبي ﷺ أم عن الصحابة ﷺ . ويتتبع أصحاب التفسير بالمأثور ترتيب المصحف المعروف فيتناولون السورة آية فآية ويذكرون ما ورد حول كل آية من روايات معزوة إلى قائلها. وقد يذكرون أسانيدهم من بدايتها إلى منتهاها وقد يغلفون عن ذلك. ومن أشهر الكتب في التفسير بالمأثور:

- جامع البيان في تفسير القرآن الكريم لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)
- معالم التنزيل للبغوي (ت ٥١٦هـ).
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤هـ).
- الدر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).

مفهوم التفسير الموضوعي:

يُقصد بالتفسير الموضوعي بصفة عامة جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد من جميع سور القرآن الكريم ثم دراستها دراسة تستوفي جوانب هذا الموضوع المراد بحثه، أو دراسة سورة قرآنية بعينها لهدف إبراز الوحدة الموضوعية بين جوانبها المتعددة.

والبحث في التفسير الموضوعي وفقاً لهذا المفهوم بحث جديد لم يعرفه علماء التفسير السابقون الذين اتبعوا المنهج التحليلي الذي أشرنا إليه سابقاً وهو تفسير آيات القرآن الكريم وفقاً لترتيب المصحف تفسيراً تحليلياً من حيث معاني كل آية لغوياً وأدبياً وفقهياً وما يرتبط بذلك من روايات متعددة.

اتجاهات البحث في التفسير الموضوعي:

غير أن علماءنا المحدثين لم يتفقهوا على منهج واحد يستخدمه من يقوم بالتفسير الموضوعي، ومن ثم لم يتفقوا على تعريف واحد أو مفهوم واحد للتفسير الموضوعي وفيما يلي عرض لأهم اتجاهاتهم:

١- يرى الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم أن التفسير الموضوعي هو: المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلاً للكشف عن مراد الله من خلال الموضوعات التي يطرحها والقضايا التي يعالجها، وتوضيحاً لهداية القرآن وتجلية لوجوه إعجازه. أو هو العلم الذي يتخذ من الموضوعات الظاهرة أساساً في الكشف عن منهج القرآن وأسلوبه

في معالجته لها، متخذاً من القواعد والشروط المرعية في التفسير سلماً للوصول إلى هدي الكتاب وجلال شأنه [د. عبد الجليل عبد الرحيم، التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، عمان : بدون ناشر ، ١٩٩٢ ، صفحة ٢٤] .

وقد لاحظ بعض الباحثين على هذين التعريفين ملاحظتين:

أولاهما: أنه ذكر في التعريف الثاني الموضوعات الظاهرة، وهو أمر غير واضح، فهل هناك موضوعات باطنة أو غير مدركة، وهل تدخل هذه الموضوعات ضمن إطار التفسير الموضوعي ومجال بحثه؟.

وثانيهما: أن التعريفين لم يبينا فيما إذا كانت هذه الموضوعات تتجلى من خلال القرآن الكريم كله أو من خلال سورة واحدة [د. زياد خليل محمد الدغامين، منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، عمان: دار البشير، ١٩٩٥، صفحة ١٤].

٢- ويرى الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أن المقصود بالتفسير الموضوعي هو جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد ووضعها تحت عنوان واحد، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعاً واحداً مستخرجاً من الآيات الكريمة على هيئة نصوص.[د. عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٩٨٦، صفحة ٣٣].

ونلاحظ على هذا التعريف أنه أغفل قسماً رئيسياً من قسمي التفسير الموضوعي، وهو ذلك القسم الذي يعتمد على دراسة سورة بعينها من سور القرآن الكريم وبيان ما بها من وحدة موضوعية.

٣- ويرى الدكتور مسموع أحمد أبو طالب أن "المنهج الموضوعي هو ذلك المنهج الذي يجمع فيه المفسر الآيات القرآنية التي تتعلق بموضوع واحد ليبين معناها، ويربط بينها، ويكشف عن غرضها الذي تهدف إليه هذه الآيات مجتمعة" [د. مسموع أحمد أبو طالب، المنهج الموضوعي في التفسير، ط٢، القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٦، ص١٤].

ونلاحظ على هذا التعريف ما لاحظناه على التعريف السابق من إغفال الدراسة الموضوعية للسورة الواحدة كما نلاحظ عليه غلبة الطابع الإنشائي مثل قوله: "يبين معناها، ويربط بينها، ويكشف عن غرضها". فكل واحدة من هذه الوحدات تتضمن بدرجة ما الوحدتين الآخريين.

٤- ويرى الدكتور عبد الحي الفرماوي أن: التفسير الموضوعي نوعان يهدف كلاهما إلى إبراز ما في القرآن الكريم من أحكام، وترابط وتناسق، وإظهار مدى عنايته بمصالح الخلق العامة والخاصة، في صور تشريعاته الحكيمة العادلة، التي لو اتبعوها لبلغوا عن طريقها إلى السعادة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، وهما:

- النوع الأول: الكلام على السورة ككل مع بيان أغراضها: العامة، والخاصة، وما فيها، مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض، حتى تبدو السورة وهي في منتهى الدقة والإحكام.
- النوع الثاني: جمع الآيات القرآنية، التي في موضوع واحد، وضعها تحت عنوان واحد، وتفسيرها تفسيراً منهجياً موضوعياً. وهذا النوع –الثاني– هو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق اسم التفسير الموضوعي، ثم يصف الدكتور الفرماوي –بحسب النوع الثاني– بأنه اصطلاح مستحدث أطلقه العلماء المعاصرون على جمع الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد– التي اشتركت في موضوع ما– وترتيبها حسب النزول –ما أمكن– مع الوقوف على أسباب نزولها، ثم تناولها بالشرح، والبيان، والتعليق، والاستنباط، وإفرادها بالدرس المنهجي الموضوعي، الذي يجليها من جميع نواحيها، وجهاتها، ووزنها بميزان العلم الصحيح، الذي يبين الباحث معه الموضوع على حقيقته، ويجعله يدرك هدفه بسهولة ويسر، ويحيط به إحاطة تامة، تمكنه من فهم أبعاده، والذود عن حياضه. [د. عبد الحي الفرماوي، البداية في التفسير الموضوعي، ط٢، القاهرة: مكتبة جمهورية مصر بالحسين، ١٩٩٧، صفحة ٥٢].

ونلاحظ على هذا التقسيم الذي اعتمد فيه صاحبه على مقولات لعلماء سابقين عليه مثل الدكتور علي خليل والدكتور محمد محمود حجازي والشيخ محمود شلتوت، أنه تقسيم وصفي أكثر من كونه تعريفاً علمياً جامعاً مانعاً، كما نلاحظ على بعض عباراته غلبة الطابع الإنشائي كسابقه وإنْ كان قد استوفى النوعين الشائعين للتفسير الموضوعي.

٥- وقد نحا بعض العلماء نحواً آخر في فهم التفسير الموضوعي حين ذهبوا إلى أن البحث عن اللفظ واستخداماته المختلفة في القرآن الكريم ينضوي تحت باب التفسير الموضوعي. وممن نحا هذا المنحى الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) وتبناه باحث جامعي في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية وتحدث عنه قائلاً:

٦- "لقد اعتبرت هذا الفن قسماً من أقسام التفسير الموضوعي لما له من علاقة قوية في هذا الموضوع من حيث اختصاصه بألفاظ القرآن الكريم والبحث فيها واحداً تلو الآخر، ويعرفه بقوله: هو عبارة عن ترتيب الألفاظ الواردة في القرآن حسب حروف الهجاء، بعد تجريدها من الزوائد، والتعرض لأصل استخدامها، واستقراء اللفظ الواحد واستخداماته في القرآن الكريم، وتوضح تباينها من موضوع لآخر. ومن أجود الكتب في هذا: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، وتعتبر كتب الأشباه والنظائر أو لإصلاح الوجوه والنظائر ضمن إطار هذا النوع من التفسير الموضوعي.

وهذا التعليل يقودنا إلى التجزيئية في التعامل مع النص القرآني، وهو منهج خطير. ومن المعلوم أن الراغب الأصفهاني لم ينشئ تفسيره لهذا الغرض، ولم يكن عمله فيه مبنياً على الاستقصاء والشمول لآيات القرآن الكريم كله، وكذلك كتب الأشباه والنظائر لا تصلح أن تكون مثالاً على التفسير الموضوعي إن ابتغينا لعملنا الدقة والإحكام [مروان الباسل، دراسة موضوعية في سورة الزمر، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦، صفحة ٥٣].

وقد انتقد بعض الباحثين هذا الاتجاه لعدة أسباب منها [د . زياد الدغامين، مرجع سابق، صفحة ١٤- ١٥]:

أولاً: أن البحث عن مفردة قرآنية واستخداماتها في القرآن لا يتأتى لجميع مفردات القرآن، فكما أن بعض المفردات وردت في القرآن مئات المرات، هناك كثير من المفردات لم تذكر إلا مرة واحدة في القرآن، مثل كلمة مسخ، وكلمة مسد، وكلمة أمشاج، وغيرها، ومن ثم تكون الدراسة مقتصرة على مفردات بعينها.

ثانياً : أن البحث عن لفظة واستخداماتها في القرآن لا يقصد منه التفسير الموضوعي في أغلب الأحيان، ولكن المقصود هو التعرف بجلاء على المعاني الدقيقة لمفردات القرآن من خلال الاستعمال القرآني لها.

ثالثاً: أن هذا التعريف -وإن كانت صورته قريبة من التفسير الموضوعي- إلا أنه يختلف عنه من حيث الغاية والهدف ومنهجية البحث.

رابعاً: أن مثل هذه التعريفات ستقودنا - حتماً- إلى تجزيئية في التفسير الموضوعي على غرار تلك التي سادت تراثنا التفسيري التحليلي، وهي تجزيئية لا تعطي تصوراً شمولياً عن موضوعات القرآن الكريم.

رأينا الخاص:

وفي رأينا أن ما سبق من محاولات لتحديد اتجاه البحث في التفسير الموضوعي اتخذ مسارين واضحين هما: جمع الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً، أو تناول سورة بعينها ثم تفسيرها. وأغلب الظن أن إقحام تفسير سورة كاملة في مجال التفسير الموضوعي يرجع إلى مقولة للشاطبي (الموافقات ٣/ ٢٤٩) أدخلت هذا النوع من التفسير الموضوعي يقول فيها الشاطبي:

"إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي تكون قضية واحدة، وتهدف إلى غرض واحد، أو تسعى لإتمامه، وإن اشتملت على عديد من المعاني".

وقد يصح هذا القول للشاطبي بالنسبة لبعض السور القصيرة مثل سورة الفيل، أو سورة الماعون أو سورة الكوثر، ولكن قد يكون من

الصعب تطبيقه بالنسبة للسور الطويلة كالبقرة والنساء، أو غيرهما من تلك السور التي احتوت قضايا متعددة. فإذا حكمنا عليها بالوحدة الموضوعية فإن حكمنا لا يخلو من تعسف وتكلف.

وعلى ذلك ففي رأينا أن التفسير الموضوعي يمكن تعريفه على النحو التالي: "دراسة الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً دراسة تفصيلية من حيث المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، واستنباط الأحكام التي تتعلق بالموضوع المبحوث في ضوء مقارنة أقوال العلماء في تلك الآيات مجتمعة، أو دراسة إحدى السور القصيرة ذات الموضوع الواحد".

منهج البحث في التفسير الموضوعي:

إن التفسير الموضوعي للمعنى الأول (اختيار موضوع وجمع ما يتصل به من آيات) له عدة مناهج تكاد تتفق كلمة العلماء عليها، ويمكن أن تكون ملامح تلك المناهج على النحو التالي:

١- اختيار الموضوع القرآني المراد دراسته دراسة موضوعية.

٢- حصر الآيات التي تدور حول هذا الغرض القرآني، وجمعها كلها، مكيّها، ومدنيّها.

٣- ترتيب هذه الآيات حسب نزولها على النبي ﷺ مع الوقوف على أسباب نزولها.

٤- التعرض لمعرفة مناسبات هذه الآيات في سورها.

٥- تكوين الموضوع بجعله في إطار متناسب، وهيكل متناسق، تام البناء، متكامل الأجزاء، قائم الأركان.

٦- تكميل الموضوع بما ورد من حديث الرسول ﷺ ، إن احتاج الأمر ذلك، حتى يكمل له هيكله، ويزداد وضوحاً وبياناً.

دراسة هذه الآيات دراسة موضوعية متكاملة، تجانس بينها، وتوفق بين عامها وخاصها ومطلقها ومقيدها، وتؤاخي بين متعارضها، وتحكم بناسخها على منسوخها، حتى تلتقي جميع هذه النصوص في مصب واحد، دون تباين أو اختلاف أو إكراه لبعض الآيات على معان لا تتحملها([د . عبد الحي الفرماوي، مرجع سابق، صفحة ٦٢].

حاجة البحث التربوي إلى التفسير الموضوعي:

إن طبيعة عصرنا الحاضر وما يفرضه من دواعي السرعة تجعل الباحث في التفسير في أمس الحاجة إلى التفسير الموضوعي للوصول إلى بغيته، فلم يعد المسلم المعاصر يستطيع الإفادة من التفسير التحليلي الموجود في كتب التفسير المتاحة، لعمق هذه التفاسير من جهة، ومن جهة أخرى لضحالة ثقافة مسلمي هذا العصر في مجال علوم القرآن، فليس في وسع كل أحد أن يكون عارفاً بالمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والمطلق والمقيد، وأسباب النزول، وما إلى ذلك من علوم لابد من الإحاطة بها قبل الشروع في التفسير.

وكذلك الحال بالقياس إلى الباحث في التربية الإسلامية، فهو حين يتناول موضوعا عاما في التربية الإسلامية، أو حين يدرس نصوصا تربوية من القرآن الكريم، تكون حاجته ماسة إلى التفسير الموضوعي دون غيره من التفاسير، لأن البحث في التربية القرآنية هو -في نهاية المطاف- لون من ألوان التفسير الموضوعي ولكن وفق أهداف تربوية محددة.

* الأهداف التربوية في قصة ابن نوح عليه السلام:

قال تعالى:

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ. حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[هود / ٣٦-٤٧].

مكث نوح عليه السلام يدعُو قومه إلى عبادة الله وحده، ألف سنة إلا خمسين، فلم يؤمن به إلا القليل، وأعرض أكثرهم عنه، وأصروا على التمسك بعبادة الأصنام، وتمادوا في غيّهم وطغيانهم وإيذائهم له، وتحدّوه أن ينزل ربه عليهم العذاب الذي خوّفهم منه، فدعا نوح عليه السلام قائلاً: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ فاستجاب الله لدعوته، وأوحى إليه أنه لا أمل بعد اليوم في إيمان أحد من قومه غير الذين آمنوا من قبل، وألا يحزن لإيذائهم له وإصرارهم على تكذيبه.

وأمره الله أن يصنع سفينة كبيرة، فجعل السفهاء من قومه كلما مرّوا به وهو يعمل استهزءوا به، وتعجّبوا كيف يترك اليوم النبوّة ليشتغل بالنجارة، ولا خبر له بهذه المهنة، وكيف تسير هذه السفينة وهو يصنعها في الصحراء بعيداً عن البحر، فكان نوح عليه السلام يسخر في نفسه من جهلهم وغفلتهم عما ينتظرهم من الهلاك، ويقول: إن تستهزؤوا اليوم فغداً نسخر منكم حين يأتي أمر الله وينزل بكم عذابه ويخزيكم.

ولمّا حان وقت العذاب أمر الله تعالى نوحاً أن يركب معه بالسفينة كل من آمن به، وأن يحمل معه من كل جنس ونوع زوجين ذكرا وأنثى لتعمير الكون بعد الطوفان، وجاء اليوم الموعود فانفتحت أبواب السماء عن سيول منهمرة جافه، وتفجرت الأرض عن عيون ماء طاغية، وتسير سفينة نوح في أمواج عاتية صامدة كالجبال الشامخة تحرسها عناية الله تعالى من جريها ورسوّها.

واقتربت المأساة من نهايتها، فطغت الأمواج، وارتفعت المياه، ونظر نوحٌ الأب الرحيم إلى ابنه والموج يلاحقه فناداه ليركب معه في السفينة وينقذ نفسه، ولكن الابن الكافر العاقّ أصمَّ أذنيه وهرع إلى الجبل لعلّه يحميه من الغرق، ولكن هيهات، فقد اجتاحت المياه كل شيء، وابتلعت الأمواج كل المشركِين وفيهم زوجة نوح وابنه، وهكذا نهاية كل العصاة المكذبين.

الأهـداف التربويـة للقصـة:

أولاً الأهداف المعرفية:

أن يعرف التلميذ أنه في القصص عبرة، وموعظة للمؤمنين وبيان أن التوحيد هو جوهر الرسالات.

١- أن يعرف شخصية نوح عليه السلام.

٢- أن يذكر المعجزة التي أيد الله سبحانه وتعالى بها نوح عليه السلام.

٣- أن يتلو الآيات الواردة في القصة تلاوة صحيحة.

٤- أن يسرد أحداث قصة نوح عليه السلام.

٥- أن يعدّد الكائنات التي وضعها نوح في السفينة.

٦- أن يفسر سبب دعاء نوح على قومه.

٧- أن يعلّل سبب صنع نوح للسفينة.

٨- أن يستنتج ماذا سيحدث في نهاية القصة؟.

٩- أن يميز بين صفات المؤمنين وصفات الكفار.

١٠- أن يستنبط العبر والعظات من القصة.

١١- أن يبدي رأيه في القصة.

١٢- أن يعرف أن وعد الله حقّ.

١٣- أن يعرف أن الاستكبار والعناد نهاية الخُسران المبين.

١٤- أن يعرف أن مهمة الرسول هي هداية الناس لطريق الحق وتبشير المؤمنين بالثواب، وإنذار المعاندين بالعقاب.

١٥- أن يعرف أن سنة الله فيخلقه أن ينصر الحق على الباطل.

١٦- أن يعرف أن أساس الحساب والجزء والعقيدة هو العمل لا الحسب والنسب.

١٧- أن يعرف أنه من الإيمان أن يبدأ كل عمل باسم الله تعالى وذكره لنستمد منه العون على إتقان العمل وتحقيق الأمل.

١٨- أن يعرف أن المسلم لا تشغله مطالب الدنيا ومنافعها عن العبادة والطاعة ومطالب الآخرة.

ثانياً: الأهداف الوجدانية:

١- أن ينمو شعوره نحو الاعتزاز واحترام العمل اليدوي.

٢- أن يحسّ بمدى حُزن نوح عليه السلام عندما استهزأ به قومه.

٣- أن يقبل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- أن يُبدي إعجابه بمدى صبر نُوح عليه السلام على قومه.

٥- أن يميل إلى حبّ الخير لإخوانه في الدين.

٦- أن يمتدح السلوك الحسن.

٧- أن ينفّر السلوك السيىء.

٨- أن يتعاون في عمل الخير.

٩- أن يستجيب لقضاء الله.

١٠- أن يُبدي رغبة مستمرة في شكر الله.

١١- أن يتحمّل مسئولية الدفاع عن دينه في كل زمان ومكان.

١٢- أن يتحمل الصبر على إيذاء الناس له.

١٣- أن يميل إلى التواضع وعدم السخرية من الناس.

١٤- أن يميل إلى الأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله.

١٥- أن يتقمص شخصية نُوح عليه السلام نتيجة اقتناعه بها.

ثالثاً: الأهداف المهارية:

١- أن يقدر جهود نُوح عليه السلام في دعوة قومه إلى طريق الحق.

٢- أن يعي أهمية العمل اليدوي.

٣- أن يوضّح الهدف العام من قصة نُوح عليه السلام.

٤- أن يفسّر سبب جمع نُوح عليه السلام زوجين ذكراً وأنثى من كل جنس ونوع.

٥- أن يستطيع تربية أبنائه تربية إسلامية.

٦- أن يستطيع أن يختار الزوجة الصالحة لأبنائه.

٧- أن يكتب الآيات التي وردت فيها ذكر قصة نُوح عليه السلام.

٨- أن يسافر إلى جبل الجودي ليعرف مكان أحداث القصة.

٩- أن يمنع نفسه من الخروج عن دائرة الإيمان.

القيم التربوية المستفادة من القصة:

حفلت قصة نوح عليه السلام بالعديد من القيم التربوية ومنها:

١- تأثير الأم أقوى من تأثير الأب:

كثيراً ما يخرج الأب إلى العمل ويترك مسئولية تربية أولاده لزوجته، فإن كانت صالحة أخرجت جيل صالح، وإن غلبت عليها أهوائها لفسد أولادها، وفي قصة نُوح عليه السلام نجد أن امرأته كانت كافرة، فكان تأثيرها السلبي على ابنها جعله ينحاز إلى أعداء أبيه ودعوته.

فالثمرة التربوية هنا هي أن مسئولية الأب ألا يعتمد على زوجته في تربية أبنائه اعتماداً كلياً وخاصة إذا كان يعمل طوال الوقت والأسمى من ذلك أن يختار أم أبنائه من ذوات الدين وليس لحسبها ولا لنسبها لكي يترك لها تربية الأولاد وتحت توجيهه وإرشاده، وتدلنا سورة نُوح عليه السلام على أنه كان يكرس كل وقته للدعوة وللجهاد في سبيل الله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح/ ٥].

٢- القرابة الحقيقية في الدين وليس في النسب:

عندما دعا نُوح عليه السلام ربه لكي ينجّي ابنه من الغرق –وهو من أهله–، وتذكر أن الله سبحانه وتعالى وعده أن ينجّي أهله، اعتقد نُوح عليه السلام أن أهله هُم أهل بيته وأهله في الدين معاً ولكنه غاب عنه قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ اي أن الذين لم يؤمنوا قبل الطوفان ليسوا من أهله، لذلك حق العذاب على ابنه لأنه كان من الكافرين ولأنه عمل عملا غير صالح، فوعظ الله نوحاً عليه السلام، ألا يسأل ربه ما ليس له به علم، وأن لا يكون من الجاهلين.

ونستفيد من هذه القيمة أنه يجب على الإنسان أن يختار الصديق المؤمن بالله والمنفذ لأوامره وبذلك يمكن أن يتخذه أخاً له، فالأخوة ليست بالنسب فقط، وكذلك يجب على الآباء ألا يرأفوا بأبنائهم إذا انحرفوا عن الطريق المستقيم.

٣- التوجيه إلى طاعة الله وحده وتوحيده:

ترشدنا القصة إلى أهمية الله سبحانه وتعالى وتوحيده، فهو الذي خلق السماء ورفعها وزيّنها بنجُومٍ لامعة وكواكب ساطعة تنير لنا الطريق وهو الذي بسط الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وأخرج من بطنها زرعاً نأكل منه وفواكه ننعم بها، وهو الذي خلقنا في أحسن صورة، وفضلنا على جميع المخلوقات. وهو الذي

يفرّج الكرب ويُزيل الغم، وكيف بعد كل ذلك نعبد صنماً أو وثناً وهي لا تنفع ولا تضرّ ولا تستطيع حماية نفسها.

فيجب علينا جميعاً أن نربّي أبناءنا على عقيدة سليمة لا يشوبها شرك ولا رياء ولا نفاق، ثم عبادة صحيحة كالة الأركان أساسها الإخلاص لله وحده، والخشوع له وحده.

٤- التدرج في الدعوة إلى عبادة الله:

في البداية ذهب نوح إلى الناس الطيبين من قومه –وهم الفقراء والمُستضعفون– في ظلام الليل يدعوهم سراً إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام وأقنعهم بالحكمة والموعظة الحسنة فآمنوا برب نُوح عليه السلام، وعندما أمره الله أن يجهر بدعوته ذهب إلى أشراف قومه، ودعاهم إلى الإيمان بالله ولكنهم لم يستمعوا إليه ولكنه لم ييأس، ثم خوّفهم من عذاب الله الأليم، ولكنهم زادوا عناداً.

فعندما يعلم ابنه درساً أو ينصحه لترك ما يفعله من الأخطاء، فعليه أن يتدرج في استخدام الأساليب لإقناع ابنه من الإقلاع عن هذه الأخطاء فلا يأمره بذلك فربما تنعكس الأمور وتنقلب على عقبيها.

٥- الصبر على إيذاء الناس له:

ويظهر ذلك عندما صبر نُوح عليه السلام في دعوة قومه إلى الحق، وكذلك عندما يسخرون منه وخاصة عند صنعه لسفينته في وسط الصحراء، فقد صبر عليهم ولم يدعو عليهم إلا عندما لم يجد منهم

فائدة، فالصبر هو عدّة الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى: قال تعالى:
﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان/ ١٧].

٦- تأثير البيئة المحيطة:

ساعدت نشأة (كنعان) في أحضان أمه الكافرة، وأقاربها الكفّار إلى ترك الابن لأبيه وانحياز الابن لأعداء الدعوة، فكان أهل أمه الكفار هم الأكثرية، لذلك كان المجتمع من حوله مجتمع فساد وكفر.

لذلك وجب على الآباء وضع أبنائهم أمام أعينهم دائماً، ونصحهم عند اختيار الأصدقاء في الدين، وقد عمّت هذه الظاهرة في هذه الأيام فقد ترك الشباب العبادة في مساجد الله، بل وتركوا العبادة نفسها، ووقعوا في اللهو ومسايرة كل ما يقال عنه "موضة" فوقعوا في دائرة الفساد.

٧- الأخذ بالأسباب أولاً ثم التوكل على الله:

يدعونا الإسلام بالأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله وعدم التواكل، فيجب على التلميذ أن يذاكر أولاً ثم يتوكل على الله في نجاحه، وكذلك على الصانع أن يجتهد في عمله ويتوكّل على الله في حُسن الإنتاج، وعلى الفلاح أن يزرع ويروي زرعه ويرعاه ثم يتوكل على الله في نموّ زرعته. ونجد أن نُوحاً عليه السلام قد بنى سفينته بأمر الله ثم توكّل على الله ليسيرها. ومعنى هذا أنه يجب علينا أن ناخذ بالأسباب أولاً ثم نتوكل على الله حتى نكون

مؤمنين حق الإيمان، فلن ينتفع الدين إلا بالفرد الإيجابي الذي يعيش حياته كما أمره الله سبحانه وتعالى.

٨- النافع والضار هو الله سبحانه وتعالى:

ظل قوم نُوح عليه السلام يعبدون الأوثان والأصنام ويدافعون عنها، واتهموا نوحاً بالجنون عندما تجرّأ على آلهتهم وأهانها، ظناً منهم أنها تدفع عنهم الأذى أو تجلب الخير، وفي الحقيقة أن الذي ينفع ويضرَ هو الله، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم موجهاً عبدالله بن عباس: (يا غُلام إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهُك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليه، رفعت الأقلام وجفّت الصحف). فأساس تربية الأبناء دائماً هو الاعتماد على منهج الله.

٩- الامتثال لأوامر الله:

عندما رأى نُوح عليه السلام ابنه كنعان يصعد الجبل للنجاة من الغرق حزن وتألم وتحركت فيه عاطف الأبوة فناداه كثيراً، وتمنّى له السلامة، ولكنه كُتب عليه العذاب لكفره فأعمى الله بصيرته، فنادى نُوح عليه السلام ربه لكي ينقذ ابنه فأجابه الله: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به

علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾. فامتثل نُوح عليه السلام لأمر الله واستغفر ربه واعتذر عما قد فرط منه من إلحاحه على الله أن ينجّى ابنه.

لذلك يجب علينا أن نربّي أنفسنا على عدم الاعتراض على قضاء الله وقدره، وأن نربي أبنائنا على طاعة الله، فهذا هو مفتاح النجاة لنا ولأبنائنا.

١٠- قوة المادية (البشرية) لا قيمة لها في مواجهة المعجزة الإلهية:

ظهر هذا عندما لجأ ابن نوح إلى الجبل ظناً منه بأنه سيحميه من الغرق، ولكن الله هو الذي خلق هذا الجبل، وأنزل هذا الماء فكيف ينكر قدرته في إنهاء مصيره.لذلك يجب علينا أن نتوكّل على الله في كُل أمورنا ونستعين به حق الاستعانة، ونعلّم أبنائنا أنه لا مفر مما كتب علينا.

١١- لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة:

لو أن كل إنسان أصابه ابتلاء في حياته، وانعزل حزناً على ما أصابه لانتهت الدنيا، لذلك لا يجب على كل من يفارقه قريب أو صديق أن يحزن حزن الجاهلية الأولى، ويترك ما له وما عليه لبكاء من فقدهم، ونجد خيرُ مثال على هذا شخصية الخنساء بنت عمرو فقبل دخولها في الإسلام بكت أخيها صخراً لفراقها له، وتمنت موتها، ولكن الإسلام غيّر من شخصيتها، والأكثر من ذلك أنها

تمنّت شهادة أبنائها الأربعة في سبيل الله، وعندما تلقّت نبأ شهادتهم فرحت فرحاً كبيراً.

فظل نُوح عليه السلام ينادي ابنه لكي يركب معه حتى باعدت الأمواج بينهما. والقيمة التربوية هنا أن الإنسان يجب أن يجدد آماله كل يوم، ولا يحزن عل ما فاته وينظر إلى مستقبله.

قصة بقرة بني إسرائيل

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُم فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣) ﴾ (البقرة).

ملخص القصة:

كان في بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى فألقاه بفنائها، ثم أصبح يطلب ثاره، وجاء بأناس إلى موسى عليه السلام فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين بدعائه أمر القتيل فأمرهم بذبح بقرة، فلما علم الناس

أن ذبح البقرة عزمٌ من الله تعال استوصفوه وكان تحته حكمة عظيمة، وذلك لأنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها إلى غيضة، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لابني حتى يكبُر، ومات الرجل فصارت العِجلة في الغيضة أعواماً، وكانت تهرب من كل من رآها.

فلما كبر الابن كان باراً بوالديه وكان يقسّم الليل ثلاثة أقسام: يصلي ثلثاً، وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح احتطب على ظهره فيأتي السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه فقالت له أمه يوماً: إن أباك ورثك هذه العجلة استودعها الله في غيضة كذا، فانطلق فادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردّها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها تخيّل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذهبة لحُسنها وصفوتها.

فأتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى وقالت: أيها الفتى البارّ بوالديه اركبني فإن ذلك أهون عليك. فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً، فانطلق فإنك لوأمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل؛ لبرّك بأمك، فسار الفتى بها إلى أمه.

فقالت له أمه: إنك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة، قال: بكم أبيعها؟. قالت: بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي. وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير، فانطلق بها إلى السوق فبعث الله ملكاً ليرى خلْقه وقدرته، ليختبر الفتى وكيف برّه بأمه؟، وكان الله به خبيراً. فقال الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟، فقال: بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضاء والدتي. فقال الملَك: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي فردها إلى أمه، وأخبرها بالثمن.

فقالت له: ارجع فبعها بستة دنانير على رضى مني. فانطلق بها إلى السوق، وأتى الملَك، فقال: استأمرت أمك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها، فقال الملَك: فإني أعطيتك اثنى عشر ديناراً فأبى الفتى ورجع إلى أمه وأخبرها بذلك، فقالت: إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليختبرك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل، فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقل لها أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران سيتشريها منكم لقتيل يُقتل من بني إسرائيل فلا تبيعوها إلا بملء مسكها دنانير فأمسكوها، وقدر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفون حتى وصف لهم تلك البقرة مكافأة له على برّه بوالدته فضلاً ورحمة فاشتروها بملء مسكها ذهباً فذبحوها وضربوا القتيل ببعض منها كما أمر الله تعالى فقام القتيل حياً بإذن الله تعالى وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان، ثم سقط ومات مكانه، فحُرم قاتله الميراث.

الأهداف التربوية من تلك القصة:

أولاً: الأهداف المعرفية: بعد قراءة هذه القصة ينبغي على القارئ أن:

- يعرف عاقبة الطمع.
- يوضح أنه لا هروب من عقاب الله.
- يدرك أن الله يحفظ مال اليتيم.
- يذكر ثواب طاعة الوالدين وبرهما.
- يستنبط الصفات العامة لبني إسرائيل.
- يعطي أمثلة على قدرة الله تعالى.
- يفسّر حكمة الله في اختيار هذه البقرة بالذات.

ثانياً: الأهداف المهارية: بعد قراءة هذه القصة ينبغي على القارئ أن:

- يمد يد العون لليتيم.
- يرسم صورة لبقرة بني إسرائيل.
- ألا يجادل كثيراً فيما لا يفيد.
- يكتب بأسلوبه ملخصاً لقصة بقرة بني إسرائيل.
- يغير من أسلوب تعامله مع اليهود؛ لأنهم أهل جدال شديد.

ثالثاً: الأهداف الوجدانية: بعد قراءة هذه القصة ينبغي على القارئ أن:

- يعي أن الجريمة لا تفيد.
- يقلع عن عقوق الوالدين.
- يتجنب المماطلة في تنفيذ أوامر الله تعالى.

- يقدر قيمة مشورة الوالدين والأخذ برأيهما.
- يتعاون على المحافظة على مال اليتيم.
- يهتم بتنفيذ أوامر الله تعالى.
- يعتز بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

القيم التربوية:

أ-: القيم الإيجابية:

١- الثقة بالله وبأنه تعالى لديه حلّ كل ما صعُب حله: فبالرغم من كفر بني إسرائيل بالله تعالى، إلا أنهم تأكدوا من أن الله لديه حل لكل معضلة، لذا توجهوا إلى موسى عليه السلام وطلبوا منه أن يدعو الله أن يبين لهم من قتل قتيلهم هذا، حيث أصبحوا يتبادلون التهمة دونما دليل ودون الوصول إلى حل، فأتاهم الجواب من الله تعالى أن يذبحوا بقرة.

٢- مراعاة الأب لابنه، وتأمين مستقبله: حيث فكّر الأب في مصير ابنه الصغير بعد وفاته، فاشترى له بقرة وتركها تأكل من خيرات الله وأشهد الله على أنه قد وهبها لابنه الصغير؛ لينتفع بها عندما تشتد به الحياة، فكانت سبيلاً للنجاة من الفقر، وكانت نعم الجزاء.

٣- حفظ الله مال اليتيم: فقد حفظ الله هذه البقرة التي استودعها إياه الأب وحفظها حتى يكبر الابن الصغير ويأخذها فحماها الله من

كل سوء وجعلها تهرب من كل من رآها، حيث أنها أمانة عند الله تعالى سيردها لهذا الابن اليتيم.

٤- طاعة الوالدين مفتاح لكل خير: فقد كان هذا الابن باراً بوالديه، وكان يقسم الليل ثلاثة أقسام يصلي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، وكان كذلك يعطي ثلثي ما يكتسب لأمه، وعندما وجد البقرة أمسك بعنقها فقالت له البقرة أن يركبها، فهذا أكثر راحة له، ولكـنه رفض لأن أمه لم تقل له اركبها، ولكن قالت له: اقبض على عنقها، وكذلـك أيضاً عندما رفض أن يبيع هذه البقرة في السوق إلا بالسعر الذي يرضي والدته، وقد جزاه الله على ذلك خير الثواب.

٥- الإيمان بقدرة الله تعالى والاستفتاح باسمه جل وعلا، قبل عمل أي شيء: حيث أمرت الأم ابنها أن يدعو إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردّ هذه البقرة إليه وبمجرد أن رأى هذه البقرة أعزم عليها بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب؛ فأقبلت تسعى، حتى قامت بين يديه.

٦ – الرضا بالقليل طريق للوصول إلى الخير الوفير: حيث رفض الابن البار بأمه أن يبيع البقرة بسعر أغلى مما قالت عليه أمه؛ لأنه اشترط رضاء أمه، ولذا فقد ضاعف الله له الجزاء الوفير، فباع البقرة بملء جلدها ذهباً، فقد حصل على الذهب جزاء قناعته بالقليل.

٧- الأخذ برأي الوالدين واستشارتهما: حيث لم يتصرف الابن من نفسه، ولكنه كان يرجع لأمه ويأخذ مشورتها ويعمل بها وقد كانت مشورتها صائبة، وبشرى خير؛ حيث حصلوا في النهاية على الخير الوفير جزاء طاعة هذا الابن لأمه والعمل على بمشورتها والأخذ برأيها فهي من أهل الخبرة والحكمة.

٨- الإيمان بالله ينير بصيرة الإنسان: فنتيجة إيمان هذه الأم بالله، فإن الله قد أنار بصيرتها وجعلها تُدرك أن ذلك الرجل الذي يريد أن يشتري البقرة، إنما هو ملك أرسله الله لكي يبلغهما شيئاً ما، فأمرت ابنها أن يسأل هذا الرجل عما إذا كان الله يريدهما أن يبيعها هذه البقرة أم أن الله قد قدر لهذه البقرة شيئاً آخراً.

٩- البعث حقيقة لا شك فيها: لقد كانت هذه القصة دليلاً على أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وهنا تتجلى قدرة الله في أن جعل بعضاً من هذه البقرة المذبوحة وسيلة في إحياء القتيل بعد الموت، وبسؤاله عمن قتله، وفي هذا صورة مصغرة ليوم البعث، حيث يحيي الله الموتى ويحاسبهم ويسألهم ثم يكون الجزاء بالثواب أو بالعقاب.

ب: القيم السلبية:

١ - المال فتنة: حيث كان المال هو السبب وراء حدوث هذه الجريمة، فقد قتل الرجل ابن عمه ليرثه؛ طمعاً في المال، وقد وسوس له الشيطان ليقتل ابن عمه؛ لكي يحصل على المال سريعاً ولكنه لو انتظر حتى يموت ابن عمه، لنال كل التركة وحده، ولكن جزاء لهذا الطمع لم يصبح لهذا القاتل أي حق في أخذ التركة، ومن يومها لا يورث القاتل.

٢- ذم الاعتراض على أوامر الله: حيث إنهم عندما طلبوا من موسى أن يسأل ربه أن يخبرهم من القاتل؟ سأل موسى ربه فأخبره الله أن يأمر قومه بذبح بقرة، ولكنهم اعترضوا على أوامر الله تعالى، واتهموا موسى بأنه يسخر منهم، ويهزأ بهم، ولكن حاش لله أن تكون السخرية والاستهزاء من صفات الرسل، ولذا يجب طاعة أوامر الله ورسله دون اعتراض عليها أيًا كانت أوامرهم ونواهيهم.

٣- الجدال من صفات بني إسرائيل: حيث إنهم جادلوا كثيراً فيما لا يفيد، فعندما أمرهم الله بذبح بقرة –أي بقرة– كان من السهل أن يذبحوا أي بقرة، ويضربوا ببعضها جثة القتيل، فيُخبرهم باسم القاتل، ولكنهم أهلٌ للجدال،فجادلوا وماطلوا، وأخذوا يضيّقون على أنفسهم، ويطلبون من موسى عليه السلام الوصف الدقيق للبقرة من حيث اللون والشكل وغيرهما، فضيقوا على أنفسهم بذلك، حتى ضيق الله عليهم، حتى اهتدوا إلى تلك البقرة.

ومن هنا قالوا: **(لا تكن كبني إسرائيل شدّدوا فشُدِّدَ عليهم)**.

قصة أصحاب الجنة

لكل قصة من قصص القرآن الكريم حكم دعوية، وأحكام فقهية، وغايات إرشادية، و غير ذلك مما تفيض به أقوال المفسرين، وخطب الدعاة، ودروس الفقهاء، وينبغي للتربويين المسلمين أن يتناولوا مافي هذا القصص القرآني من عطاء تربوي معجز في إيجازه، يمكن استلهامه والاهتداء به في صياغة المناهج، والتخطيط التربوي للأنشطة المدرسية. فمن المسلم لدى التربويين أن القصة من موائد التأديب الدسمة، وأسلوب من أساليب التربية الجذابة المشوقة، ويمكن –إذا استعين بها في التربية– أن تثري وتثمر، وتجدي وتؤثر. وهذا ما ستحاول السطور القادمة استجلاءه في قصة أصحاب الجنة التي وردت في سورة القلم .

قال تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلاَ يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا

كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَآ أَنْ يُبدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْكَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم].

ملخص القصة:

هذه القصة مثلٌ ضربه الله تعالى لكفار قريش، فيها أهدى لهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد –صلى الله عليه وسلم– فقابلوه بالردّ والتكذيب والمحاربة، فاختبرهم الله سبحانه وتعالى، كما اختبر أصحاب الجنة الذين حلفوا ليجنين ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، وحلفوا على ذلك فحنثهم الله على أيمانهم.

فهذه القصة تخوّف أهل مكة بأنهم إذا لم يرتدعوا ويعودوا إلى الله سيحدث لهم ما حدث لأصحاب الجنة، وسيعذبون في الدنيا والآخرة.

فأصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن، وكانوا من قرية يقال لها "ضروان" على بعد ستة أميال من صنعاء، وكان أبوهم رجلاً مؤمناً بالله، يمتلك بستاناً كبيراً، وكان يشكر الله على نعمه، ويسير في البستان سيرة حسنة، وكان يدخر لعياله قوت سنتهم، ويعطي للفقراء والمساكين حق الله ويزيد، وذلك عند جمع الثمار، وكان الله يزيد نعمه عليه لعطفه على الفقراء والمساكين.

ولما مات ورثه أبناؤه، وحينما نضجت الثمار اتفق الأبناء على أن يكتموا خبر جمع الثمار عن الفقراء والمساكين، وقالوا: لقد كان أبونا أحمق

جاهلاً، إذ كان يخصص من هذه الجنة قسطا للفقراء، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك لنا، واتفقوا أن يذهبوا في الصباح الباكر إلى البستان قبل أن يستيقظ الفقراء، وأن يمنعوهم إذا أرادوا دخول البستان للحصول على ماعتادوا من حق الله، كما كان يفعل أبوهم، الذي كان يُخرج زكاة الثمار عند جنيها، ولم يقولوا: إن شاء الله سنفعل كذا، بل تصوروا أنفسهم قادرين على الجني ومنع المساكين.

فلما عزموا على ذلك عُوقبوا بنقيض قصدهم، فقد أذهب الله ما بأيديهم فلم يبق لهم شيء من حديقتهم، فقد طافت عليها نارٌ في تلك الليلة فأهلكت ثمرها، وجعلتها قبيحة المنظر: كالنخيل المنزوع ثمره، أو كبستان حرقت ثماره وبدا قبيحا كريه المرأى.

ونادى بعضهم بعضاً في الصباح: أن اخرجوا مبكرين، وأسرعوا في الصباح المبكر وليس معهم أحد من المساكين، أو من غيرهم، بل وحرصوا ألا يحدثوا صوتاً حتى لا يتنبه المساكين، فلما وصلوا وجدوها محترقة الأشجار بدون ثمار، فظنوا أنفسهم قد أخطأوا الطريق وقالوا: إنا لضالون عن طرق جنتنا، تائهون عن الوصول إليها، لأن هذه الجنة الخاوية على عروشها ليست جنتنا التي عهدناها بالأمس القريب زاخرة بالثمار، ثم اعترفوا بالحقيقة المرة بعد أن تأكدوا أنها حديقتهم، وقالوا: إن الله حرمنا من ثمارها بسبب إصرارنا على حرمان المساكين من حقوقهم منها، وكان ذلك جزاء نيتهم الخبيثة التي أرادت منع الزكاة وحرمان الفقراء؛ فحرمهم الله من كل الثمار، ومن كل المال.

ولكن أحدهم -وكان أحسنهم رأياً وأكبرهم عقلاً- قال لهم موبخا: ألم أقل لكم وأذكّركُم بالله، وقلت لكم أن تتوبوا إليه قبل أن يقع عليكم عقابه، ولكنكم لم تخافوا وصممتم على منع الفقراء، وقد قال لهم سيروا على الطريقة التي كان يسير عليها أبوكم وأعطوا المساكين حقوقهم، وها أنتم أولاء قد خالفتموني ولم تطيعوا أمري، فكانت نتيجة مخالفتكم لنصحي ما ترونه من خراب البستان الذي أصابني من خرابه ما أصابكم، وقالوا: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين بمنع الفقراء، ولام بعضهم بعضاً وقالوا: ما أشد غباءنا ! لقد هلكنا !! هذا جزاء تجاوزنا الحد بمنع الفقراء، ونرجو أن يبدلنا ربّنا خيراً بتوبتنا.

وقد خُتمت القصة بأن ما حدث لهم إنما هو نوع من العذاب في الدنيا وسوف يعذبهم الله في الآخرة عذاباً شديداً.ويبدو أن هذه القصة كانت معروفة لأهل مكة، ولذا ضرب الله تعالى المثل بها؛ ليعتبروا ويتعظوا.

ووجه المشابهة بين حال أهل مكة، وحال أصحاب الجنة، يتمثل في أن كلا الطرفين قد منحه الله نعمة عظيمة، ولكنه قابلها بالجحود وعدم الشكر، وقد امتحن الله أهل مكة كما امتحن أصحاب الجنة الذين كانوا من قبلهم، لأنهم أقسموا بالأيمان المغلظة ليقطعن ثمرها في وقت الصباح الباكر، ولا يعطون منها شيئاً للفقراء أو المساكين، فكانت نتيجة هذه النية السيئة أن أنزل بهذه الحديقة بلاءً أحاط بها فأهلكها، فصارت كالشيء المحترق الذي قطعت ثماره، ولم يبق منه شيء ينفع.

الأهداف التربوية في قصة أصحاب الجنة:

أولاً: الأهداف المعرفية:

١- يعرف الإنسان المسلم حال أصحاب الجنة.

٢- يفرّق الإنسان بين حال الأبناء وحال الأب في قصة أصحاب الجنة.

٣- يفرق الإنسان بين حال أصحاب الجنة قبل احتراق جنتهم وبعدها.

٤- يقارن الإنسان بين حال أهل مكة وحال أصحاب الجنة من حيث جحود النعمة.

٥- يتذكر الإنسان ما فعله أصحاب الجنة من منع الفقراء والمساكين من حق الله في جنتهم.

٦- يستنتج الإنسان عقاب من يمنع الزكاة والصدقات

٧- يستنتج الإنسان عقاب أصحاب الجنة لما منعوا الفقراء والمساكين من حق الله.

٨- يعرف الإنسان عقوبة جحود النعمة وعدم شكر الله تعالى عليها.

٩- يعرف الإنسان أن من يتصدق بشيء يردّه إليه الله أكثر منه في أشياء أخرى.

١٠- يعرف الإنسان أن الله هو الغني ونحن الفقراء إليه.

١١- يفهم الإنسان قدرة الله على الخلق.

١٢- يعرف الإنسان أن الزكاة حق من حقوق الله علينا وركن من أركان الإسلام.

١٣- يعرف الإنسان أن الخير بيد الله، وأن هبة الرزق ومنعه من عند الله سبحانه وتعالى.

١٤- يعرف الإنسان نتائج وآثار معصية أصحاب الجنة.

١٥- يعرف الإنسان حقوق الفقراء على الأغنياء وحقوق الأغنياء على الفقراء.

١٦- يتصور الإنسان النفس البشرية في حال غناها وحال فقرها.

١٧- يتصور الإنسان النفس البشرية في حال حصولها على النعمة وحال ذهاب النعمة.

١٨- يعطي الإنسان أمثلة مما يحدث في المجتمع يشابه ما حدث في قصة أصحاب الجنة.

ثانياً: الأهداف المهارية:

١- يبعد الإنسان المسلم عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

٢- يتصدق الإنسان المسلم على فقراء المسلمين وأن يتصدق على كل سبل الخير في المجتمع الإسلامي بقدر استطاعته.

٣- يُعطي الإنسان المسلم الزكاة عن نفسه وأبنائه وأمواله وأملاكه.

٤- يذكر الإنسان المسلم فضل الله عليه.

٥- يعترف الإنسان المسلم بنعم الله الكثيرة عليه.

٦- يتقي الإنسان المسلم الله سبحانه وتعالى في كل أفعاله.

٧- ينصح الإنسان المسلم من يمنع حقوق الله التي تعطى للفقراء في المجتمع الإسلامي.

٨- يأمر الإنسان المسلم أخيه المسلم بطاعة الله وعدم معصيته.

٩- يعترف الإنسان بذنبه أمام الله سبحانه وتعالى في صلواته.

١٠- يزيد الإنسان من طاعة الله سبحانه وتعالى.

١١- يتوب الإنسان المسلم إلى الله عند ارتكابه الذنوب والمعاصي.

١٢- يقتدي الإنسان المسلم بالأفراد الصالحين في المجتمع الإسلامي.

١٣- يشارك الإنسان المسلم باقي الأفراد في أعمال الخير.

١٤- يقدّم الفرد المشيئة بقوله: إن شاء الله في كل أفعاله.

١٥- يسبح الفرد الله سبحانه وتعالى ويذكره في السن والعلن.

ثالثاً: الأهداف الوجدانية:

١- يتصف الإنسان المسلم بالسلوك القويم في كل أفعاله.

٢- أن يهتم الإنسان المسلم بالتعاون بينه وبين باقي أفراد مجتمعه.

٣- أن يحسّ الإنسان المسلم بأهمية إعطاء حقوق الله للفقراء والمساكين.

٤- أن يشعر الإنسان المسلم بأهمية إعطاء الزكاة.

٥- أن يشعر الإنسان المسلم بأهمية إعطاء الصدقات.

٦- أن يعتز الإنسان المسلم بدينه وبإيمانه وبدعوته إلى سبل الخير.

٧- أن يتحمل الإنسان المسئولية الجماعية تجاه قضايا المجتمع.

٨- أن يخشع الإنسان لله سبحانه وتعالى ويخاف من عقابه، ويرغب في رضا الله.

القيم التربوية في قصة أصحاب الجنة:

١- الاقتداء بالأب:

فيجب على الإنسان المسلم أن يقتدي بأبيه إذا كان صالحاً، وأن يأخذه قدوة له في كل أفعال الخير، ولكن أصحاب الجنة رفضوا الاقتداء بأبيهم، ووصفوه بأنه أحمق، عندما كان يعطي الفقراء حق الله.

٢- الإيمان بالله وبقدرته:

فيجب على الإنسان أن يؤمن بالله سبحانه وتعالى، ويؤمن بقدرته على جميع الخلق ويعترف بذلك، ويجب أن يعترف بحقوق الله عليه، لكن أصحاب الجنة ظنوا أنفسهم قادرين على حرمان الفقراء من حق الله، فحرمهم الله من جنتهم عقاباً لنيتهم السيئة، ويجب على الإنسان أن يؤمن برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعترف بنعمة الله عليه إذ أرسل إليه خاتم الأنبياء والمرسلين.

٣- الاعتراف بالخطيئة والتوبة والرجوع إلى الحق:

فيجب على الإنسان أن يعترف بذنبه، ولا يكابر في ذلك، فأصحاب الجنة اعترفوا بخطيئتهم وأنهم حرموا الفقراء حق الله فحرمهم

الله من حقهم، وأخذ الحذر بالإيمان والعمل الصالح، ويجب على الإنسان أن يتوب ويرجع إلى الله ويطلب منه أن يعفو عنه ويغفر له.

٤- شكر النعمة:

فيجب على الإنسان أن يشكر الله على نعمه الكثيرة علينا، ولا يكفر بها ويجحدا، ولا يؤدي حقها، مثلما فعل أصحاب الجنة.

٥- البُعد عن المعاصي:

يجب على الإنسان أن يبعد عن المعاصي والذنوب بقدر المستطاع، وذلك تجنباً لغضب الله سبحانه وتعالى علينا، وحتى تنالنا رحمته ونبعد عن عذابه، وحتى تغفر لنا ذنوبنا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن العبد ليذنب الذنب فيُحرم به رزقاً كان قد هييء له).

(٥) قصة مؤمن أنطاكية

ذكرها الله عز وجل في سورة يس في قوله تعالى:

﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين(٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون(٢١)وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون(٢٢)ءأتخذ من دون الله آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون(٢٣) إني إذاً لفي ضلالٍ مبين(٢٤) إني آمنت بربكم فاسمعون(٢٥) قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون(٢٦) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين(٢٧) وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنا منزلين(٢٨) ﴾.

وقد سبق ذكر قصة مؤمن أنطاكية ذكر قصة أصحاب القرية التي جاء إليها اثنان من المرسلين فكذبوهما فعزز الله ببعث الثالث لهما مما زاد في إقامة الحجة عليهم، وكانت قصتهم تلك مثلاً أراد الله ضربه عن طريق نبيه المبلغ عنه محمد صلى الله عليه وسلم لكفار قريش، وما كان في هذه القصة من تسلية للنبي عليه السلام بذكر ما حدث مع الرسل السابقين.

ثم ما كان من أصحاب القرية إلا أن كذّبوا هؤلاء المرسلين وتشاءموا منهم، فردوا عليهم أن شؤمكم عليكم وأننا أردنا بدعوتنا هذه الخير لكم والنجاة من النار يوم القيامة بأن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وأننا لا نريد أجراً مادياً أو معنوياً منكم على دعوتنا وإنما أجرنا على الله لأننا مبلغون منه لإنذاركم من عذابه إن كفرتم.

ثم يأتي ذلك الرجل من المدينة ليعزز دعوة هؤلاء المرسلين وكان مسرعاً في المجيء لحرصه على إيمان قومه، فطلب من قومه اتباع المرسلين الذين لو أراد شيئاً لأنفسهم لطلبوا الأجر، ثم عرّض لهم أنني كيف لا أعبد الذي فطرني وخلقني وإليه مرجعكم على جهة التعريض بهم أنكم أحرى أن تعبدوه لأن مرجعكم إليه وهذا احتجاج منه عليهم، وأضاف الفطرة إلى نفسه، لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم، لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر، فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكراً، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثراً.

ثم قال مشنعاً عليهم كيف أتخذ من دونه أصناماً لا يغنون عني شيئاً ولا يدفعون عني الضر ولا يخلصوني من البلاء فإذا فعلت ذلك كنت ذا خسران ظاهر ثم خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم وطلب منهم أن يكونوا شهوداً له بالإيمان، فما كان من قومه إلا أن وثبوا عليه وقتلوه فخرجت روحه ودخلت الجنة، فلما رأى ما فيها من الخير الكثير تمنى أن يعلم قومه بما هو فيه من الغفران والنعيم، ومعنى تمنيه فيه قولان:

الأول: أنه تمنى أن يعلموا مجالسه ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته.

والثاني: تمني ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله.

فكان بَعدُ أن عاقب الله هؤلاء القوم بسب كفرهم وأهلكهم بصيحة واحدة.[1]

واشتمل هذا النص على تعليم من الله عز وجل لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أن يوجّه علاجاً لقومه، بأن يقدم لهم صورة ن صور الإقناع الذي يحمل عصا الإنذار بالعقاب المعجّل للذين لم يؤمنوا به رسولاً، ولم يؤمنوا بما جاء به عن ربه.

وهذه الصور هي ضرب هذا المثل لما هم فيه من عنادٍ وإصرار على الكفر بما كان عليه أصحاب قرية وثنية جاءها مرسلون من غير أهلها، فدعوهم إلى الإيمان الحق وإلى ترك الكفر والباطل، فكذبوهم في كونهم رسل ربهم فأكدوا لهم أنهم صادقون مرسلون حقاً وأنه ليس عليهم إلا البلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة وأنهم ليسوا مكلفين أن يلزموهم إلزاماً على الإيمان، فأصر أصحاب القرية على تكذيب الرسل وهددوهم بالقتل رجماً بالحجارة.

ونصر هؤلاء الرسل الثلاثة رجل من أصحاب القرية جاء من أقصى المدينة يسعى، فدعاهم إلى الإيمان برسل ربهم وحاورهم وناظرهم وأخيراً أعلن إيمانه بربه فغضبوا وثاروا عليه وقتلوه، فوجد عند ربه مغفرة

---

(1) ابو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م) جزء ٨، ص ١٤، ١٥.

وإكراماً عظيماً فتمنى أن يعلم قومه بذلك، والله أوقع بعد ذلك العذاب على قومه بكفرهم"[1].

فقصة صاحب يس توضح حقيقة الإيمان وقيمة اليقين، وكيف تكون الاستجابة لداعي الحق، وفعل الله بأوليائه وتصور الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر.

فصاحب يس الذي ذكرته السورة تنويهاً له وإعلاء لشأنه لم تذكر اسمه ولا بلده ولا سنه. وكل ذلك طواه القرآن، لأنه لا فائدة ترجى من البحث فيه، وليس هو الهدف من القصص القرآني، وإنما الهدف إظهار العلاقة بين الخير والشر وعاقبة كلٍّ منهما، الأمر الذي يدعو العباد إلى الإيمان وفعل الخيرات ويخوفهم من الكفر وفعل المنكرات.

فهي دعوة إلى الاستقامة على منهج الله ومتابعة طريق الأنبياء والمرسلين، وكان الغرض الأساسي منها إقامة واجب العبودية في كل عصر ووقت ودعوة الخلائق لإسلام الوجه لله جل وعلا، وإبلاغ الحق للخلق، فهي تذكرة سيقت مساق القصة في بساطة أسلوب وسلاسة عرض، تصل إلى شغاف القلوب من أيسر الطرق لتحقق هدفها وتبلغ مرامها"[2].

---

(1) فقه الدعوة إلى الله، ص ٤٢٥، ٤٢٦، مرجع سابق.

(2) قصص القرآن عظات وعبر، ص ٢٦١، ٢٦٢، مرجع سابق.

* الدروس والقيم التربوية المستفادة من القصة في المجالين السلوكي والفني:

١- أن الإيمان بالله ولو كان زمنه قصير يؤدي إلى تحقيق رضا الله طول العمر والفوز بجنانه إذا كان الإنسان فيه صادقاً وكان هذا الإيمان نابعاً من القلب واستخدمه لتحقيق غايات عظمى.

٢- إن صاحب أي فكرة جديدة لابد أن يتسلح بأدلة قوية كما كان موقف مؤمن يس من الاستدلال على قومه بالآلهة التي لا تضر ولا تنفع.

٣- الابتعاد عن التشاؤم والتطير كما فعل أصحاب القرية.

٤- التشكيك والإشاعات والكذب من الأمراض الاجتماعية التي تؤدي إلى إفساد المجتمع وخلخلة ترابطه.

٥- عدم انتظار الأجر على فعل الخير من الناس بل يبتغي فاعله الأجر عند الله تعالى.

٦- التلطف بمخاطبة الأعداء ومن يُرجى صلاحه، ومنه يؤخذ التلطف في معاملة التلميذ مما يورث عنده السكينة وحب العلم والمعلم.

٧- الاهتمام بطلب القوة المادية إذا احتاجها الإنسان لتأييد رأيه.

** ** **

(٦) قصة أصحاب الجنة في سورة القلم

ذكرها الله عز وجل في الآيات من (١٧) إلى (٣٣)، والتي قال الله تعالى فيها:

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين(١٧) ولا يستثنون(١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون(١٩) فأصبحت كالصريم(٢٠) فتنادوا مصبحين(٢١) أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين(٢٢) فانطلقوا وهم يتخافتون(٢٣) أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين(٢٤).. .. ﴾.

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، لكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده، ويكون هذا هو الجديد في السياق القرآني.

ومن خلال حوادثها ونصوصها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج، وهذا مناسب لمستوى المخاطبين في القصة الذين كانوا يعاندون ويجحدون، لكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد إنما هي أقرب إلى البساطة والسذاجة. ففي القصة سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده أو فيها حيوية في العرض فكأن السامع يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى.

فأصحاب هذه الجنة في الدنيا يبيّتون أمراً وهو أن للمساكين حظ من ثمر هذه الجنة على أيام صاحبها الرجل الصالح، لكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمارها الآن ويحرمون المساكين فقرروا قطع الثمار في الصباح الباكر دون علم المساكين وبيّتوا ذلك وعقدوا النية عليه، فكانت المفاجأة أن أهلك الله الجنة في الليل وعندما أصبحوا ذهبوا إليه بعد أن تنادوا خلسة دون إشعار أحد وكانوا يهمسون أنهم لن يعطوا اليوم مسكيناً واحداً وكانوا قادرين في ظنهم على الحرمان والمنع، وهم يتفاجأون بعد أن رأوها وظنوا أنهم أضلوا الطريق ثم أيقنوا بالخبر أنهم حُرموا ثمرها بسبب المكر والتبييت وكان هذا عاقبة البطر والمنع فيتقدم أوسطهم وهو أعقلهم فيطلب إليهم التوبة إلى الله من هذا العمل ويتلاومون على فعله وكذلك كان الابتلاء بالنعمة[1].

وقد صوّر القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم لأحوال البشر والنفوس البشرية تصويراً معجزاً، وكانت هذه القصة مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدي إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة وهو بعثه محمد صلى الله عليه وسلم إليهم فقابلوه بالتكذيب والمحاربة.

ويبدو أن قصة أصحاب الجنة كانت معروفة لأهل مكة، ولذا ضرب الله تعالى المثل بها حتى يعتبروا ويتعظوا.

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ١٩٩٤م)، جزء ٦، ص ص ٣٦٦٤-٣٦٦٦.

فالآيات تدل على أنه تعالى امتحن كفار قريش بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف بسبب كفرهم بنعمه وتكذيبهم لرسوله صلى الله عليه وسلم كما ابتلى من قبلهم أصحاب الجنة، بأن دمرها تدميراً، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها. فأنزل بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها فصارت كالشيء المحترق الذي قطع ثمره ولم يبق منه شيء ينفع.

ثم جاءت الخاتمة تين النتيجة النهائية أنه مثل هذا العذاب الذي نزل بأصحاب الجنة يكون عذاب أهل الكفر والشرك وأما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى وأعظم لو أنهم من أهل الفهم والعلم فيدعوهم ذلك إلى الإيمان[1].

* الدروس والقيم التربوية المستفادة من القصة في المجالين السلوكي والفن :

١- سوء عاقبة الجاحدين لنعم الله، إذ هذا الجحود يؤدي إلى زوال النعم، وشكرها يؤدي إلى دوامها وزيادتها.

٢- تنوع حالات النفس الإنسانية وتدرجها من حال غناها إلى حال فقرها، وفي حال حصولها على النعمة وفي حال ذهابها من بين أيديها، فعلى المعلم أن يراعي هذا التنوع واحتياجات كل نوع من طلابه حتى ينجح في إيصال العلم لهم.

---

(1) القصة في القرآن الكريم-محمد الطنطاوي، ص ص ٩٤٢-٩٤٩، مرجع سابق.

٣- ضرب الأمثال من الأساليب التربوية الناجحة في ترسيخ المعلومة في ذهن الطالب والتنوع فيها يؤدي إلى تنوع العلوم والمعارف.

٤- أن الله عز وجل قد يبتلى أحد من عباده ليختبرهم في إيمانهم أو ليردهم إلى جادة الصواب إذا حاد عنها لطمع نفس أو مادي.

٥- أن النفس أمارة بالسوء فعلى المسلم أن يحذر من وساوس النفس ووساوس الشيطان وأن يتبع ما يرضي الله في ذلك.

** ** **

(٧) قصة أصحاب الأخدود

ذكرها الله عز وجل في سورة البروج في قوله تعالى:

﴿قُتل أصحاب الأخدود(٤) النار ذات الوقود(٥) إذ هم عليها قعود(٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود(٧) وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد(٨) الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد(٩) إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق(١٠) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير(١١) إن بطش ربك لشديد(١٢) ﴾.

صُدِّرت هذه القصة بجملة دعائية من الرب سبحانه وتعالى على أصحاب الأخدود والآيات بدأت في سورة البروج بالقسم بالسماء ذات البروج والقسم باليوم الموعود والقسم بالشاهد والمشهود على أنهم -أي كفار مكة- ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان وتصبيرهم على أذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وصبرهم على ذلك حتى يتأسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من أقوامهم ويعلموا أن هؤلاء عند الله تعالى بمنزلة أولئك المعذبين ملعونون مثلهم أحقاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم.

وقد روي في صحيح مسلم[1] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان فيما سبق ملك وكان له ساحر وأنه كبر فأراد أن يعلم أحداً يخلفه في عمله فأحضر له غلام فكان يعلمه وأنه في طريق الغلام كان راهب، فكان الغلام يجلس إليه حتى أحب كلامه وأنه بعد أن أتم العلم حدثت حادثة الدابة التي في الطريق التي عرف الغلام من خلالها أن أمر الساحر باطل وأمر الراهب خير، وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وكان للملك جليس أعمى فطلب من الغلام شفاءه فقال له الغلام أن الشافي هو الله وطلب منه الإيمان به ليشفيه، فآمن فشفاه الله ثم سأل الملك هذا الجليس عمّن شفاه، فأخبره أنه الله تعالى، فغضب لأنه عبد إلهاً غيره وكان قد نصّب نفسه إله للناس جميعاً فدله الجليس على الغلام بعد التعذيب ثم عذّب الغلام فدله على الساحر فقتل الساحر والجليس وأراد قتل الغلام فلم يفلح بشتى الطرق، فدله الغلام على طريقة قتله والتي كان فيها إيمان الناس جميعاً برب الغلام، فعلم الملك بذلك، فأمر بالأخدود فشُق وهو الحز في الأرض وأوقد فيه النيران وأمر أعوانه أنه من لم يرجع عن دينه من الناس ألقوه فيه ففعلوا.

فقد لعنهم الله حين أوقدوا النار العظيمة اللهب وأحدقوا بها قاعدين حولها ليشرفوا على قتل المؤمنين ويشهدون على ذلك.

---

(1) الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، (الرياض: دار المغني، ١٩٩٨م) ص ١٦٠٠، كتاب الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود. الساحر والراهب والغلام، حديث (٥٣٢٧).

ولم يكن ما أنكروه عليهم سبباً لعذابهم فجاء باستئناف مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية ووصفه تعالى بكونه عزيزاً غالباً يُخشى عقابه وحميداً منعماً يُرجى ثوابه والله شاهد على كل شيء وعد للمؤمنين ووعيد شديد لمعذبيهم فإن علمه تعالى بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما، بأنهم فتنوا المؤمنين المطروحين في الأخدود بالأذية والتعذيب ثم لم يتوبوا من فعلتهم ذلك وعن كفرهم لهم عذاب أليم ونار محرقة بسبب فتنتهم للمؤمنين[1].

تصدر قصة الغلام وأصحاب الأخدود في وقت تتوالى فيه أخبار المذابح الجماعية وحرب الإبادة التي تتم للمسلمين في كل مكان، فقد قتل أصحاب الأخدود وقتل الغلام والراهب والأعمى، ولا سبب لذلك إلا أنهم أسلموا وجوههم لله، فسنن التدافع بين الإيمان والكفر والحق والباطل ماضية في الخلق.

وكما كانت المواجهة بين الملك الطاغية وجنده من جهة والغلام والراهب والأعمى وأصحاب الأخدود مواجهة عقائدية وليست صراعاً على الملك أو الأمتار والتراب كل ذلك جملة الصراع العقائدي أو الأيديولوجي كما يعبر البعض.

---

(1) أبو السعود محمد بن محمد العمادي (٩٥١)هـ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، جزء ٩، ص ١٣٥-١٣٧.

فقصة الغلام وأصحاب الأخدود، فهي معين لا ينضب بالدروس والفوائد، وزاد للغرباء الذين يسيرون على درب الاستقامة في وقت تغيرت فيه القيم وتبدلت فيه الموازين[1].

وملخص القصة أن جماعة من المؤمنين الصادقين، ثبتوا على إيمانهم وإخلاصهم العبادة لخالقهم، فعذبهم أعداؤهم عذاباً شديداً، حيث حفروا لهم حفراً في الأرض، ثم أضرموا فيها النار، ثم ألقوا بالمؤمنين فيها وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر.

فكانت الآيات تعجب من حال هؤلاء المجرمين، حيث عذّبوا المؤمنين، لا لشيء إلا من أجل إيمانهم بخالقهم، وكأن الإيمان في نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار[2].

* الدروس والقيم التربوية المستفادة من القصة في المجالين السلوكي والفني:

١- أن الحياة جعلها الله عز وجل نزاعاً موصولاً بين أهل الحق وأهل الباطل، إلا أن سنة الله تعالى قد جعلت العاقبة للمؤمنين الصادقين.

٢- أن الجزاء من جنس العمل فقد عذّب الله تعالى أصحاب الأخدود بالنار كما عذّبوا المؤمنين بالنار في الأخدود.

(1) قصص القرآن عظات وعبر، ص ص ٣٨٥-٣٩٢، مرجع سابق.

(2) القصة في القرآن الكريم – طنطاوي، ص ص ٩٥٠-٩٥٧، مرجع سابق.

٣- أن أصحاب دعوة الحق دائماً معرضون للبلاء والاضطهاد والقتل في كل زمان ومكان وهذه سنة الله تعالى في عباده أن أهل الحق منهم محاربون من دعاة الكفر والضلال وهي سائرة إلى يومنا هذا ولا أدل عليه مما يجري في زماننا من القتل والتعذيب للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فعليهم أن يصبروا ويحتسبوا.

٤- دعوة الجبارين والعصاة للتوبة مع كل ما يفعلونه وما فعلوه من الذنوب والآثام لأن باب الرجاء مفتوح وباب التوبة مفتوح والله هو التواب الرحيم.

٥- استخدام أسلوب الترغيب والترهيب في ثنايا القصة وهو أسلوب تربوي ناجح في العملية التعليمية.

٦- استخدام المعاريض للبعد عن الكذب كما هو حال الغلام عند قوله للساحر والأهل والتعمية على الراهب.

٧- أن الكرامات للأولياء شيء مشروع وله أصل في الدين فنؤمن به.

٨- الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم كما اعترف الراهب بفضل الغلام عليه.

٩- كتمان السر وما فيه شر إذا انتشر للحفاظ على أمن المجتمع وسلامته.

قصة قوم سبأ

قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴿٢١﴾ ﴾ (سبأ/ ١٥- ٢٠).

ثانياً: معاني بعض المفردات

١- سبأ: اسم لقبيلة قوية سكنت اليمن وأنشأت فيها حضارة[١].

(١) محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير في فتح القدير (مختصر تفسير الإمام الشوكاني)، دار المؤيد للنشر، ط٢، ١٩٩٦، ص٥٦٤.

٢- آية: أي في قصتهم عبرة وعظة ودرس للآخرين ودالة على قدرة الله تعالى[١].

٣- جنتان: أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين نضرة وعن شماله كذلك[٢].

٤- فأعرضوا: أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره، وعن اتباع أوامر رسله، وكفروا وطغوا[٣].

٥- سيل العرم: سيل سد مأرب بعد تدميره. والسيل العرم هو السيل المدمر المخرّب الذي لا يطاق لشدته[٤].

٦- أكل خمط: (الخمط) هو كل شجرة مرة ذات شوك وهو نوع من أشجار الصحراء[٥].

٧- أثل: نوع من الشجر الذي لا ينتفع بثمره[٦]، وهو من أشجار الصحراء يسمى (الطرفاء)[٧].

٨- سدر: نوع ثالث من أشجار الصحراء، له شوك.

٩- القرى التي باركنا فيها: هي قرى الشام[١] (فلسطين، بيت المقدس، وما حولها).

---

(١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٩٨١، ج ١٣، ص١٠.

(٢)، (٣) ، (٤) المرجع السابق، ج١٣، ص١٠.

(٥) محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير، ص٥٦٥.

(٦) محمد علي الصابوني، صفوة التفسير، ج١٣، ص١١.

(٧) محمد سليمان الأشقر، صفوة التفاسير، ج١٣، ص١١.

١٠- قرى ظاهرة: أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية، قرى متواصلة من اليمن إلى الشام يُرى بعضها من بعض لتقاربها، ظاهرة لأبناء السبيل[٢]، وهي بلاد الحجاز.

١١- قدرنا فيها السير: أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً، من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية[٣]، سير على مراحل محددة. بحيث يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى إلى انتهاء سفرهم، ولا يحتاجون إلى حمل زاد أو ماء إلى أن يصلوا.[٤]

١٢- جعلناهم أحاديث: أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم.[٥]

١٣- مزقناهم كل ممزق: أي فرقناهم في البلاد.[٦]

ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: (تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ).[٧]

---

(١) المرجع السابق، ج١٣، ص١١.

(٢) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج١٣، ص١١.

(٣) المرجع السابق، ج١٣، ص١١.

(٤) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص٥٦٥.

(٥) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسيرن ج١٣، ص١١.

(٦) المرجع السابق، ج١٣، ص١١.

(٧) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت(٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ج٣، ص٧٠٥.

١٤- باعد بين أسفارنا: أي طلبوا من الله تعالى أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار.[1]

ثالثاً: ملخص القصة

قامت دولة سبأ على أطلال الدولة المعينية باليمن وخلفتها في لغتها وعاداتها، وأسسوا القصور الشامخة، ثم انتقلوا إلى مأرب، واتخذوها حاضرة لهم... وكانت اليمن بلاد مستفيضة الرقعة، ذات أودية عريضة وتربة خصبة ولكنها كانت شحيحة بالماء، مقفرة من الأنهار، إلا وابلاً من المطر يتحدر من سفوح الجبال.. لا يلبث حتى يأخذ سبيله إلى باطن الأرض.

فألجأتهم الحاجة إلى أن يبتدعوا أمراً يتوقون به هذه السيول ثم ينتفعون بها، فهدوا إلى طريقة السدود والحواجز، وكثرت هذه السدود وتعددت تلك الحواجز بكثرة الأدوية... لكن سد مأرب كان أقواها وأمتنها وأكبرها وأجداها نفعاً، فمدينة مأرب تقع في نهاية وادٍ فسيح يتجه إلى الجنوب، ثم يقصر أمده، وتضيق رقعته رويداً رويداً، حتى يكون أضيق ما يكون، ثم يمتد حتى يلتقي بمجرى السيول المتحدرة من جبال السراة.

وفي هذا الوادي أقام الملوك العظام من سبأ سداً عريضاً منيعاً حصيناً، وجعلوا على جانبيه مصارف بطرق هندسية منتظمة، هيأت لهذا

---

(1) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج١٣، ص١١.

الوادي أن يصبح بفضل ما احتجزوه من الماء أرضاً خصيبة فيها زروع نضرة، وحدائق ذات بهجة[1].

واتسعت لديهم النعمة، واشتغل جماعة منهم بالتجارة والرحلة، فكانوا يسيرون إلى القرى التي بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين، لا يسيرون مرحلة أو مرحلتين حتى يكون الله قد هيأ لهم مكاناً يبرِّدون فيه أقدامهم، ويريحون أبدانهم، ويتزودون بطيب الزاد وعذب الماء. حتى أن الغادي منهم كان يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، وكانوا يسيرون في الليل أو النهار آمنين لا يخافون شيئاً[2].

فكانوا خلقاء أن يشكروا الله نعمته، وأن يحمدوه على ما أطعمهم من جوع وأمَّنهم من خوف، ولكنهم جروا في عنان بعض من سبقهم من الأمم، فكفروا بالنعمة، وبالغوا في البطر والأثرة حتى أرسل الله فيهم أنبياء نصحوهم، فأعرضوا، وهداة مرشدين حاولوا إصلاحهم فأعرضوا، وكفروا، وبغوا، فأراد الله أن يذيقهم وبال أمرهم، وأن يريهم عاقبة كفرانهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم ومثلاً لغيرهم.

---

(1) محمد جاد المولى وآخرون، قصص القرآن، شرح وتعليق دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، ص٢٤٣-٢٤٤.

(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج٣، ص٤٥٥.

فتهدّم السد، وتقوض البناء، ولم يستطع أن يحجز السيول المتدفقة... وانطلقت المياه الحبيسة في شعاب الوادي، وبين الغياض، فغرق الزرع، وهلك الضرع وتقوض البناء، وعاد الوادي كما كان، صحراء مقفرة صامتة مجدبة، لا نبات فيها سوى أشجار لا تثمر إلا كلّ مرٍ بشع، وأثلٍ لا غناء فيها، وشيء من سدر قليل[1].

وكانوا إلى هذا الوقت، ما يزالون في قراهم وبيوتهم. ضيّق الله عليهم في الزرق، وبدلّهم من الرفاهية والنعماء، خشونة وشدة، ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم.

وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة: مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام. فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ، ومتصلة بالقرى المباركة، والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ:١٨).

وقيل: كان المسافر يخرج من قرية، فيدخل في الأخرى قبل دخول الظلام. فكان السفر فيها محدود المسافات، مأموناً على المسافرين. كما كانت الراحة موفورة، لتقارب المنازل، وتقارب المحطات في الطريق.

---

(1) محمد جاد المولى، قصص القرآن، ص٢٤٥-٢٤٦.

وغلبت الشقوة على سبأ، فلم ينفعهم النذير الأول، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء. بل دعوا دعوة الحمق والجهل.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبا:١٩).

تطلَّبوا الأسفار البعيدة المدى، التي لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام. لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تُشبع لذة الرحلات! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس.

﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

واستجيبت دعوتهم. ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البَطِر.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ: ١٩).

شُرِّدوا ومُزِقوا. وتفرقوا في أنحاء الجزيرة مبدّدي الشمل، وعادوا أحاديث يرويها الرواة. وقصة على الألسن والأفواه. بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة(١).

أما الأهلون فإنهم لما رأوا أن معين رزقهم قد غاض لم يطيقوا صبراً على أن يقيموا في صحراء كانت بالأمس جناناً، وخرائب كانت بالأمس قصوراً، ففارقوا أوطانهم على الكرة منهم، ونزحوا عن ديارهم... ثم تمزقوا في شتى البلاد، غسان إلى الشام، وأنمار إلى يثرب،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ج٥، ص٢٩٠١-٢٩٠٢.

وجذام إلى تهامة، والأزد إلى عُمان، ومُزّقوا كل ممزق، حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل وحكايات تروى.

كانوا في نعمة سابغة فلم يحفظوها وثياب من العز ضافية فلم يصونوها فجزاهم الله بما كفروا.[1]

﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٧).

رابعاً: السياق الذي وردت فيه الآيات ﴿في سورة سبأ﴾

لقد سبق هذه الآيات حديث عن داود وابنه سليمان عليهما السلام، باعتبارهما ملكين عادلين مؤمنين شاكرين، ثم ذكر قصة سبأ نموذجاً للكفر والبغي والبطر.

يقول الشهيد سيد قطب عن هذا السياق وعن ربط القصة بما ورد عنها في سورة النمل:

(وفي قصة آل داود تُعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله، وحسن التصرف في نعمائه، والصفحة المقابلة هي صفحة سبأ، وقد مضى في سورة النمل ما كان بين ملكتهم وبين سليمان من قصص. وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان، مما يوحي بأن الأحداث التي تضمنها وقعت بعدما كان بينهما وبين سليمان من خبر.

يرجّح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك، وتمزقهم كل ممزق، وهم كانوا على

---

(1) محمد جاد المولى، قصص القرآن، ص٢٤٦.

عهد الملكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في ملك عظيم، وفي خير عميم، ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين، فالقصة هنا تقع بعد إسلام الملكة لله، وتحكي ما حلّ بهم بعد إعراضهم عن شكره وعلى ما كانوا فيه من نعيم[١].

خامساً: حديث صحيح في سبأ

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟ أرجل أم أرض ؟ فقال رسول الله عليه السلام: "بل هو رجل وَلَدَ عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام أربعة فأما اليمنيون فمذحج وكنده والأزد والأشقريون وأنمار حمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان[٢].

قال ابن كثير في معنى الحديث: (ومعنى قوله ﷺ: ولد له عشرة من العرب: أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٠، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ج٥، ص ٢٩٠٠.

(٢) رواه أحمد والطبراني والحاكم، وقال عنه ابن كثير إن إسناد حسن.

ومعنى قوله: فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة أي بعدما أرسل الله عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزح عنها إلى غيرها[1].

سادساً: نظرة بلاغية

تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة، من بيان وبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين لفظ (يمين ... وشمال).

٢- جناس الاشتقاق في قوله ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا﴾. فإن كلمة سيروا مشتقة من كلمة السير.

٣- المبالغة، بذكر صيغ المبالغة.﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن فعّال وفعيل وفعول من صيغ المبالغة. فشكور صيغة مبالغة من شاكر، وصبّار من صابر، وكفور من كافر.

٤- مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع. مثل قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ؟... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٥- ذكر الألفاظ المتقابلة مثل ﴿الشكور والكفور﴾.

٦- نلاحظ الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا﴾. والمعنى: أعرضوا عن الشكر، بعد أن أمروا به. فقد سبق أن قال في أمرهم: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٧٠٣.

٧- جعلناهم أحاديث: فيه كناية عن تدميرهم وشدة ما حلّ بهم حتى صار خبرهم قصة يتحدث بها الناس وصار تفرقهم، مثلاً يضرب.

٨- في قوله: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، فيه كناية عن تواصل هذه القرى وقربها من بعضها بحيث يرى بعضها من بعض لتقاربها. أو أن هذه القرى بينة واضحة يعرفها المسافرون والمراد القرى بين اليمن والشام وهي بلاد الحجاز.

سابعاً: نظرة لغوية

١- في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ﴾.

أي جنتين صاحبتي أكل وذواتي مثنى مؤنث لكلمة "ذو".

٢- في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

نلاحظ أن (مِنْ) تفيد التبعيض، أي كلوا من بعض رزق ربكم، وأكل بعضه لا كله. فالمقصود من الأكل هو سد الحاجات. والإنسان يأكل حتى يصل إلى الاكتفاء وليس إلى الامتلاء.

٣- تعدية الشكر باللام في قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ ولم يقل ﴿واشكروه﴾ فلأن اللام لام "التقوية" من حيث اللغة، لأنها قوّت وصول الفعل للمفعول به، والضمير بعدها، مجرور لفظاً منصوب محلاً.

وهذه اللام يمكن أن تسمى (لام الإخلاص) أي أن الشكر لا يكون إلا لله، والشاكر مخلص لله بشكره. وكذلك يمكن أن تسمى هذه اللام (لام الاستعانة) لأن الشاكر يشكر الله من خلال رزقه

ونعمه عليه، فيستخدم ذلك الرزق في طاعة الله، ويستعين به على عبادته.

وغالب أفعال الشكر في القرآن تتعدى بحرف اللام: لمعنى التقوية والاستعانة والإخلاص، والله أعلم.[1]

٤- في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾.

نلاحظ إضافة الرزق إلى الرب، وذلك لمعنى إيماني وتربوي وهذه الإضافة للتخصيص فالزرق هو من عند الله وحده، ولا يجوز نسبته لغير الله.

٥- في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.

نلاحظ وجود حرف (الفاء)مقترناً مع كلمة أرسلنا عليهم، والفاء هي للترتيب مع التعقيب الفوري وهي هنا توحي بأن عذاب الله جاءهم سريعاً فورياً مترتباً على إعراضهم عن طاعة الله وشكره.

٦- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾.

نلاحظ قضيتان:

أ- (الباء)، في قوله (بما كفروا) هي باء السببية أي عاقبناهم بسبب بغيهم وكفرهم ومعلوم أن ما بعد باء السببية سبب في حصول ما قبلها، أو أن ما بعدها طريق وسبيل لوقوع ما قبلها.

---

(١) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، في القرآن دروس في الإيمان والدعوة والجهاد، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ج٣، ص٢٠٧.

ب- في كلمة (جَزَيْنَاهُمْ). جزيناهم من الجزاء. وقال الراغب عنه:
(الجزاء: الغِناء والكفاية، والجزاء ما فيه الكفاية. من المقابلة.
إن خيراً فخير وإن شراً فشر. يقال: جزيته كذا، وجزيته
بكذا.

ويقال: جزيته بكذا، وجازيته بكذا. ولم يجئ في القرآن إلا جزى دون جازي. وذلك أن المجازاة هي المكافأة، وهي المقابلة من كل واحد من الرجلين، والمكافأة هي مقابلة نعمة بمثلها، هي كفؤها. ونعمة الله ليست من ذلك، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في حق الله تبارك وتعالى.[1]

والجزاء هنا معناه العقاب، أي عاقبناهم ببغيهم.

* عطف الأمر بالشكر على الأمر بالأكل ﴿كُلُوا ... وَاشْكُرُوا ...﴾، على اعتبار الشكر لله ثمرةً من ثمار أكل رزقه، ونتيجة لذلك الأكل، وشرطاً للانتفاع بالأكل، ودوام ذلك الرزق، بل: قل: إن شكر الله هو ثمن ذلك الأكل، إن الله يريد من الآكل أن يدفع ثمن ما يأكل، وهو شكره لله على نعمه.

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة مصطفى الحلبي بمصر، ١٦٨١هـ - ١٩٦١م، ص٩٣.

* في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾. الاستفهام بأداة الاستفهام (هل) هنا هو استفهام تقريري، حيث يقرر أن الله لا يجازي إلا الكفور.
* في بداية كلام القرآن عن سبأ قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾. ولما انتهى من ذكر القصة، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ﴾. والذي يستوقفنا في السياق هو التعبير بالمفرد أولاً ثم بالجمع بعد ذلك: آية وآيات.

ولعل الحكمة من ذلك لها جانبان:

الجانب الأول:

تناسبُها مع الموضوع الذي تتحدث عنه، فقوم سبأ عندما عاشوا نعم الله، كانوا سعداء منعّمين، وكانوا مجتمعين متفقين كأنهم رجل واحد. ولذلك ناسب أن يعبّر عنهم بالمفرد ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾.

ثم الآية تناسب المسكن، فالمسكن مفرد، والآية مفردة.

أما بعد تدمير السد، وتمزيقهم كل ممزق، وتشتيتهم في البلاد، فقد تحولت الأمة إلى أمم، والقبيلة إلى قبائل، والمسكن إلى مساكن. ولهذا التقسيم والتفريق ناسب أن يعبّر بالجمع، فجعل الآية الواحدة المنطبقة على القوم المجتمعين، آيات عديدة، لتصيب كل واحد منها كل تجمع لهم، وكل مسكن وكل قبيلة - والله أعلم-.

الجانب الثاني:

أن الآيات تشمل الآية: ففي سبأ آية في تمكين الله للناس، وآية في توفيره الرغد والرخاء للناس، وآيه في ظلم الناس وكفرهم وبغيهم، واستخدامهم نِعم ربهم في غير ما يريد الله، وآية في غفلة أناس، وعدم اتعاظهم واعتبارهم مما يجري لهم، وآية في اعتبار أن ما يصيب الناس إنما هو بسبب كسبهم وفعلهم، وآية في نفاذ السنن الربانية وانطباقها على الناس في كل زمانٍ ومكان. وأية في انتقام الله من الظالمين.[1]

ثامناً: التصوير الفني في القصة

لم يفصِّل القرآن النعم الغامرة التي منحها الله لسبأ، إنما عَرَضها بجملة موجزة:

* ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

هي جملة واحدة، لكنها جميلة معجزة مصورة، تقدّم للقارئ صورة فنية لتلك النعم، وتلقي ظل الكثرة فيها، وهي بذلك تغني عن كل شرح وتفصيل.

إن النعم الربانية تمثلت في جنتين وارفتين، واحدة عن اليمين، والثانية عن الشمال: ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾. وهما رمز الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل.

---

(1) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج٣، ص٢٢٠.

وماذا يريد الإنسان في الدنيا أكثر من أن يسير وسط جنات غنّاء، عن يمينه وعن شماله؟

* واختيار كلمة جنة يوحي بما منحهم الله من غنى ونعم ووفرة وثمار. وهذا ناتج عن الماء الذي ألهمهم حسن حبسه وتصريفه واستغلاله، فعندما تحكموا به أنشأوا من ذلك جنتين وارفتين[1].

قد أطلق القرآن على نعم الكفار في الدنيا لفظ: (جنة أو جنتين أو جنات)، وذلك أنهم يعتبرون ما هم فيه من النعيم هو الجنة المطلوبة ولا يؤمنون بوجود جنة تساوي جنتهم فضلاً عن أن تفضلها.[2]

* البديل المر

بعدما أرسل الله عليهم سيل العرم، وأهلك جنتيهم، أشار القرآن إلى البديل المر الذي كان لهم: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

الجنتان بقيتا جنتين من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة، إذ ذهبت أشجارهما وثمارهما، وأنبت الله مكان تلك الأشجار أشجاراً صحراوية مرّة شائكة، ضعيفة عاجزة ذاوية. منها أشجار كلها شوك، وثمرها أُكُله خَمْط: أي مُرّشائه كريه.

---

(1) صلاح عبدالفتاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، ج٣، ص٢٠٣-٢٠٤.

(2) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج٣، ص٢٠٤.

قال الراغب في معنى خمط: (تخمّطَ: إذا غضب، يقال: تَخَمّطَ الفحل: هَدَرَ).[1]

وهذا معنى لطيف، أي: كأن هذا الشجر البديل الجديد، غضب على قوم سبأ لكفرهم وبغيهم، فأخرج لهم أكلاً نحساً مّراً شائهاً. أي كأن الأشجار تغضب من الكفار، وتسخط عليهم، وتقدّم لهم ما يليق بهم. ومنها أشجار أثل: وهو شجر صحراوي اسمه الطرفاء، سريع الاشتعال، تشتعل به النار ولو كان أخضر طرياً.[2]

وظاهر ما في حروف كلمة (خمط) من دلالة على ما في ذلك الثمر من بشاعة وكراهة وخشونة، يوحي بذلك تتابع حروف الخاء ثم الميم ثم الطاء.

وقال الأستاذ سيد قطب: (وأعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد، فيما أنعم الله عليهم، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدة تدفقه، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ثم لم يعد الماء يخزّن بعد ذلك، فجفت واحترقت وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء، تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة).[3]

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات

(2) صلاح الخالدي، مع قصص السابقي، ج٣، ص٢١٠.

(3) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٩٠١.

والمفارقة واضحة بين الحالتين:

فرق بعيد بين الحالة الأولى التي كانوا فيها، يعمرون الأرض، ويتنعمون بخيراتها، ويعيشون حياة مرفّهة، يتناقل الآخرون أخبارهم، ويروون ما هم فيه من رغد ومال وسلطان، ومنزلة ورخاء ونعيم، ويشيدون بهم وبحياتهم.

وبين الحالة الجديدة التي صاروا إليها، في فقر وضنك وعوز وحاجة، ضعافاً متفرقين متمزقين مشتتين.[١]

صار الآخرون يقارنون بين الحالتين، ويقفون على المفارقات بينهما. وبذلك تحولت سبأ من قوم كانوا ملء السمع والبصر، إلى قوم زالوا وبادوا، وأصبحوا مضرب الأمثال، وأخبار السابقين، وأحاديث المجالس، وموضوعات السمر.

تاسعاً: أهم الدروس الدعوية المستفادة من قصة سبأ

١- جنة الكفار في الدنيا زائلة:

أطلق القرآن على نِعم الكفار في الدنيا، لفظ: جنة أو جنتين، أو جنات، وذلك أنهم يعتبرون ما هم فيه من النعيم هو الجنة المطلوبة، ولا يؤمنون بوجود جنة تساوي جنتهم فضلاً عن أن تفضلها.

---

(١) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج٣، ص٢١٨.

والملاحظ أن القرآن كان يذكر زوال تلك النعم عن الكفار، وتدمير جنتهم، وإزالتها عن الأرض.[1]

* وشواهد ذلك جنتا قوم سبأ، وصاحب الجنتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم.
* وقوم فرعون: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (سورة الشعراء، ٥٧).
* وقوم هود عليه السلام: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، ١٣٢-١٣٥).
* وقوم صالح عليه السلام: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ(١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء: ١٤٦-١٤٧).

فكل جنات الكفار في الدنيا إلى تدمير وزوال، هذه هي سنة الله!

٢- إن القرآن يحذّر الناس- وبخاصة الذين ينعم الله عليهم بالثراء والغنى- أن يسلكوا سبيل قوم سبأ، وأن يكونوا مثلهم، حتى لا يحل بهم ما حل بأولئك القوم.

٣- نِعم الله على عبادة تستوجب الشكر، والحمد الكثير والاعتراف بالفضل والطاعة وحسن العبادة. فلا بد أن نشكر الله ونحمده على كل نعمة أنعمها علينا.

---

(1) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج٣، ص٢٠٤.

٤- شكر الله وحمده سبب لاستمرار النعم والبركة في الأرزاق كما أن عدم الشكر والإعراض عن الله هو سبب لزوال النعمة وقطع الأرزاق والحرمان من البركة. يؤخذ هذا من عطف الشكر على الأكل في قوله تعالى: **﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ... فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم ... ﴾**.

٥- الشكر لله لا يكون باللسان فقط وإنما هو شامل لشكر العقل والقلب والوجدان والجوارح، ويشمل تأدية حق الله في تلك النعم.

٦- إن شكر الله الرزّاق المنعم دليل على الخير والبر والإيمان عند المؤمن، ودليل على السماحة والأريحية والبذل والكرم والعطاء. وإذا لم يشكر الإنسان ربه المنعم على ما رزقه، فهذا دليل على بخله وكنوده وجحوده وضلاله.

٧- من سنن الله التي لا تتخلف أنه ما من أمة تكفر بالله وتستخدم نعمه في الكفر والفساد إلا ويحل بها عذاب الله، فيسلبها النعم ويوقع بها الهلاك. وقصة سبأ دليل ساطع على ذلك حيث يقول تعالى: **﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ... وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾**. وهؤلاء قد جاءهم عذاب الله سريعاً كما توحي بذلك (الفاء) في كلمة (فَأَرْسَلْنَا) حيث الفاء للترتيب مع التعقيب الفوري، فسنة الله أن الإعراض عن شرعه ودينه يعقبه عذاب الله وانتقامه. ومن شواهد هذه السنة في القرآن قوله تعالى: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل، ١١٢).

٨- في هذه الآيات دليل على صدق نبوة سيدنا محمد حيث أنها تروى قصة أمة غابرة لم يشهد النبي ﷺ حضارتهم، ولم يدرس تاريخهم ولم يزر مساكنهم، وإنما هو وحي يوحى.

٩- هلاك سبأ بما كان نعمة عليهم: (سيل العرم).

أهلك الله سبأ بالماء: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.

وسيل العرم: هو سد (مأرب) الذي كان يحجز الماء عنهم، فنقضه الله، وأرسل الماء من وراءه سيلاً جارفاً عارماً، عمّ جناتهم فأتى عليها وأهلكها.

قال الراغب في معنى العرم: (العرامة: شراسة وصعوبة في الخُلق، وتظهر في الفعل).

يقال: عَرَم، فلان فهو عارم، وعَرِم تخلق بذلك.

وقوله: (سيل العرم) أراد سَيْلَ الأمر العرم.[1]

ويلحظ المؤمن البصير طرفاً من آيات الله في إهلاكهم، حيث أهلكهم بالماء وبالسد وبالسيل. لقد أنعم الله عليهم بالماء، وجعله وسيلة للرفاه والخصب والتقدم والرقي عندهم، وأرشدهم إلى حسن استغلاله والتصرف فيه، وطالبهم مقابل ذلك بشكره.

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص٢٣٢.

فلما أعرضوا حوّل نعمته عليهم إلى نقمة، وخيْره إلى عذاب، إن الأمر بقي لم يتغير، لكن أثره فيهم هو الذي تغير، لأن الله أراد أن يحوله إلى الطرف الآخر، جزاء بغيهم وكفرهم.[1]

الماء كان نعمة، أنشأوا به الجنات، وحجزوه خلف السد، وعاشوا به سعداء.

والماء نفسه جعله الله نعمة وعذاباً، فأرسل عليهم سيلاً عَرِماً من خلف السد، وكان بهذا الماء تدمير جناتهم، وهلاك مزروعاتهم.

وهذا من آيات الله، بالماء تنشأ لهم الجنات ثم بالماء نفسه، تدمر تلك الجنات، بالماء عاشوا أغنياء سعداء، وبالماء نفسه ذلوا وافتقروا.

١٠- درس للأمم التي منحها الله النعم، أن تعبد الله وتشكره لتبقى على تلك النعم، وإلا فإن النعم نفسها تتغير إلى نقم.

وأمم الأرض اليوم تنعم بنعم لا تحصى، ألهم الله بني البشر الوصول إليه من مثل: الكهرباء والتكنولوجيا والإلكترونيات وعلم الذرة وعلم الطب، والاتصالات والمواصلات والسيارات والطائرات وسعة العمـران... الخ.

فلا بد من الشكر بمعناه الحقيقي الشامل حتى لا تنقلب تلك النعم إلى نقم بتدبير من الله عز وجل.

---

(1) صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ص٢٠٩.

وكم من الناس من تتحول نعمته بكفره وفساده إلى نقمة وعذاب! وكم من أمة شقيت بما كان المأمول به سعادتها! وصدق الله: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة، ٥٥).

١١- على المرء أن يعتبر بما أصابه، ويعدّ مصابه نذيراً من الله وتذكيراً للرجوع. أما قوم سبأ في قصتهم فهم قوم لا يعتبرون ولا يتعظون، أرسل الله على سبأ السيل، ودمّر جناتهم لعلهم يعتبرون ويتعظون، ويرجعون إلى الله، ولكنهم طُمس على عيونهم، وخُتِم على قلوبهم، فلم يتعظوا ولم يعتبروا: قال تعالى عن ما جرى لهم بعد تدمير السد: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾. فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

فقد ظلوا بعد تدمير السد في قراهم وبيوتهم، نعم لقد ضيق الله عليهم وبدلهم من الرفاهية والنعماء شدة وخشونة ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم وكان العمران متصلاً بينهم وبين القرى المباركة، مكة في الجزيرة وبيت المقدس في الشام ... والطريق مأمون والمحطات متقاربة.

لكن غلبت الشقوة على سبأ فلم ينفعهم النذير الأول ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء، بل دَعَوا

دعوة والحمق والجهل، فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾. طلبوا الأسفار البعيدة المدى التي لا تقع إلا مرات على مدار العام لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تشبع لذة الرحلات، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس. ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

واستجيبت دعوتهم ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر.[1]

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

١٢- قصة سبأ آية في حسن التعليل والتفسير التاريخي لأسباب نشوء الأمم والأقوام والدول والحضارات. وفي أسباب اندثارها وزوالها.

١٣- في قصة سبأ ذم الغفلة عن الله متمثلاً في الغفلة عن شكره على مظاهر نعمته، والإعراض عن رسله.

١٤- قصة سبأ آية في أن ما يصيب الناس إنما هو بسبب كسبهم وفعلهم. يؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ والباء هنا هي باء السببية أي عاقبناهم بسبب بغيهم.

١٥- القرآن يعلل ما وقع لقوم سبأ ويبين الحكمة منه وهو حريص على بيان العدل في أفعال الله تبارك وتعالى وإظهارها أمام الناس، حتى لا يوسوس لهم الشيطان بشبهة ظلم من الله لعباده سبحانه. ولذلك يبين أن الله عاقبهم بسبب بغيهم وأوقع بهم نتيجة كفرهم ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ...﴾.

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٩٠١.

١٦- في وجه اقتران الصبر مع الشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. لأن الصبر يعني الابتلاء والامتحان، يعني إدراك الصبّار أن الله يبتليه ويمتحنه في حياته، في كل ما ينعم عليه فيها، وما يمنحه فيها. وإدراكه لهذا يعني استخدامه هذه النعم والمنح في طاعة الله، وتحقيق محبته ورضوانه.

لابد من الصبر في التعامل مع نعم الله، وقطع مسيرة هذه الحياة. الصبر بكل مظاهره وألوانه وصوره ومجالاته. الصبر على النعمة، والصبر على الغنى، والصبر على القوة والسلطان، والصبر على الرخاء والرفاه، والصبر على المال والثراء، والصبر على الابتلاء والتنبيه، والصبر على المحنة والفتنة، والصبر على الضرّاء والمصيبة، والصبر على الزجر والتأديب.

فمن تعامل مع كل ذلك بصبر كان صبّاراً، ونجح في الابتلاء والامتحان. وشكر الله على نعمه، واستخدمها فيما يرضيه.

والصبر يقوده للشكر، وكل صبّار شكور، وإذا شكر الله أدام عليه نعمته، وزاده منها، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم،٧).

هذا، وقد قَرَنَ القرآن بين الصبّار والشكور، فلم يذكر الصبّار إلا ذكر بجانبه الشكور، بحيث تكونان صفتين متلازمتين: الصبر والشكر، وتكونان متلازمتين لصاحبهما، وتكونان صيغتي مبالغة من الصبر والشكر.

وكلمة صبّار ذكرت في القرآن أربع مرات، وهي في المرات الأربع مقترنة بالشكور.[1]

والصبّار الشكور هو الواعي الذي يحسن التعامل مع الحياة ويتعامل مع ما يقدمه الله له بصبر وشكر.

١٧- ذم الجرأة على الله وعلى رسله، وما تنطوي عليه هذه الجرأة من سوء أدب وذلك ظاهر في ما نقل القرآن من قولهم: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، مع أنهم في نعمة من تواصل القرى، وهم بذلك يشاكلون بني إسرائيل عندما قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ (سورة البقرة، آية ٦١).

١٨- نجاح إبليس في إغواء قوم سبأ.

عقّب القرآن على قصة سبأ، ومن جملة ذلك التعقيب قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٠)وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

ومعنى قوله: صدق عليهم إبليس ظنه: حقّق فيهم هدفه وغايته ورسالته، ونجح في إغوائهم وإضلالهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

---

(1) محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٩٣

رسالة إبليس التي وقف حياته لها، وغايته من هذه الحياة، هي ما صرّح به يخاطب الله بتبجح: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. (الأعراف، ١٦-١٧).

لكن: هل هم مكرهون على الاستجابة للشيطان؟ مضطرون لاتباع خطواته؟ هل له عليهم سلطان قاهر؟

كلا. ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

لذلك، فهم المسؤولون عن اتباعه، والمحاسبون على الاستجابة له، لأنهم اتبعوه مختارين، واستجابوا له راضين، وفتحوا له قلوبهم وحواسهم.

عاشراً: أهم القيم التربوية التي تضمنتها القصة

أ- أهم القيم التربوية الإيجابية التي تتضمنها القصة:

١- الإبداع في تسخير موارد الطبيعة.

٢- دعوة إلى شكر نعمة الله.

٣- الرفاهية ورغد العيش نعمة من عند الله.

٤- تذكير الإنسان بفضل الله وكرمه.

ب- أهم القيم التربوية السلبية التي تتضمنها القصة: والتي هدفت الآيات إلى التنفير منها والحذر من الوقوع فيها وأهمها:

١- بطر النعمة.

٢- الإعراض عن التذكير بفضل الله (تجاهل النذير).

٣- رفض تقديم الشكر والطاعة لله على نعمته.

٤- الاغترار بالقوة والسلطان الحاضرين.

٥- الغفلة عن قدرة الله وبطشه.

٦- استخدام نعم الله في معصيته.

٧- إيثار الهوى والشهوات.

٨- طاعة الشيطان والاستسلام له.

٩- التشديد والتضييق على النفس. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

١٠- جحود النعمة ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

١١- ظلم النفس.

١٢- التمرد على أوامر الله.

حادي عشر: أهم الأهداف التربوية

أ- أهم الأهداف التربوية في المجال المعرفي:

تتضمن قصة قوم سبأ جملة من الأهداف التربوية المعرفية أهمها:

١- أن يعرف المتلقي من هم قوم سبأ، وكيف نشأت حضارتهم.

٢- أن يعرف السامع المكان الذي أقام فيه قوم سبأ، وازدهرت فيه حضارتهم.

٣- أن يعرف سر ازدهار حضارتهم، وكيف ألهمهم الله تسخير الطبيعة لما فيه الخير لهم ولأبنائهم من بعدهم. فقد ألهمهم الله حسن حبس الماء وتصريفه واستغلاله فعند ما تحكموا به أنشأوا من ذلك جنتين وارفتين.

٤- أن يستنتج الطالب سر إضافة (الرزق) إلى كلمة (الرب)، ويعرف بأن هذه الإضافة للتخصيص، فالرزق من عند الله وحده.

٥- أن يعلم الطالب المقصود من اختيار كلمة (الرب) في سياق قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ وأن ذلك مقصود للتقرير بأن الله هو المربي يربي عبادة وعبيده بالنعمة، فيمنحها لهم ليعبدوه ويشكروه.

٦- أن يعلم الطالب أن نعم الله على عبادة وعبيده تستوجب الشكر، والحمد الكثير، والاعتراف بالفضل والطاعة والعبادة وتأدية الحق في مقابل هذه النعم.

٧- أن يعرف الطالب ويستنتج أن شكر الله المنعم على فضله سبب لاستمرار الزرق والزيادة منه، ودوام التمتع بهذه النعمة. وأن يستنتج كذلك أن عدم الشكر لله هو السبب الرئيس لزوال النعمة، وقطع الأرزاق والحرمان من الأكل. كما حصل مع قوم سبأ. وهذا يؤخذ من عطف الشكر على الأكل في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وأن

يستذكر في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم، ٧).

٨- أن يتعرف الطالب على معنى الشكر لله. وأنه لا يكون باللسان فقط، بل إن الشكر مطلوب باللسان والعقل والقلب والوجدان والجوارح، ثم هو شكر عملي يتجلى في استخدام تلك النعم في طاعة الله ونفع عباده وإخراج حق الله في المال وغيره من النعم.

٩- أن يتذكر السامع ويستحضر آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن أقوام من أمم سابقة بطروا نعمة الله، من مثل قوله تعالى:

* ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ (القصص، ٥٨).
* ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل، ١١٢).

١٠- أن يربط الطالب ما بين قصة سبأ الواردة في سورة النمل وما كان من أمر ملكة سبأ مع الهدهد ومع سيدنا سليمان عليه السلام وبين ما ورد في سورة سبأ من أمر قوم سبأ. وأن يوفق بين أحداث القصتين زماناً.

١١- أن يربط الطالب ما بين قصة قوم سبأ وقصص أصحاب الجنات المذكورون في القرآن. من مثل صاحب الجنتين في

سورة الكهف وأصحاب الجنة في سورة القلم، وجنات قوم فرعون، وجنات قوم هود وجنات قوم صالح. وأن يستنتج ما يربط هذا القصص ببعضه من حيث مصير الأقوام والأسباب التي أوصلت هؤلاء إلى هذا المصير.

١٢- أن يستنتج الطالب نفاذ السنن الربانية وانطباقها على الناس في كل زمان ومكان.

١٣- أن يتعرف الطالب على وجه اقتران الصبر مع الشكر في الآيات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وأن يفهم الحكمة من ذلك.

١٤- أن يجيب الطالب على السؤال الآتي:

- لماذا يقرر القرآن أنه لا يستفيد من هذه الآيات إلا كل صبّار شكور؟ (سبق بيان إجابة السؤال في مبحث الدروس الدعوية، ص١٨).

١٥- أن يقارن السامع ما بين موقف قوم سبأ لما بطروا النعمة وأحبوا أن يباعد الله بين أسفارهم ليحتاجوا في قطع المفاوز إلى حمل الزاد والماء وإلى ركوب الرواحل مع أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام آمنين لا يحتاجون إلى حمل زاد أو ماء لوجود القرى الظاهرة وموقف بنو إسرائيل لما طلبوا من موسى عليه السلام أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا في

عيش رغيد في منٍّ وسلوى، وما يشتهون من مآكل ومشارب.[1]

ولهذا قال الله تعالى لهم : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾(سورة البقرة،٦١).

ب- أهم الأهداف التربوية في المجال الوجداني (الانفعالي):

١- أن يزداد يقين المتعلم بأن الرزق هو من عند الله وحده لا شريك له في ذلك، نأخذ ذلك من السياق العام لقصة سبأ، ومن إضافة الرزق إلى كلمة الرب ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾. فالإضافة هنا للتخصيص.

٢- أن يزداد يقينه بقدرة الله على عبادة وبقدرته تبارك وتعالى المطلقة على التصرف في الظواهر الطبيعية.

٣- أن يقدر الطالب قيمة شكر النعمة وتأدية حق الله فيها وأثر هذا الشكر في استمرار ودوام هذه النعمة.

٤- أن يكره الطالب جحود النعمة متمثلاً في الإعراض عن شكر الله المنعم.

٥- أن يحذر من الغفلة عن ذكر الله وشكره على نعمه.

٦- أن يحذر الإنسان من عدوه الأزلي (إبليس) وأن يتيقظ لمصائده ومكائده.

---

(١) الإشارة إلى هذا المعنى عند ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٧٠٤.

٧- أن يحسن المتلقي بمعنى قوله تعالى:﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم، ٧).

٨- أن يقدّر المتلقي قيمة الأمن وقيمة تقارب المحطات أثناء السفر وكيف أنها نعمة من نعم الله تستحق الشكر.

ج- أهم الأهداف التربوية في المجال النفسي حركي:

١- أن يرجع الطالب إلى كتب تفسير القرآن الكريم وينظر إلى ما ورد في تفسير هذه الآيات.

٢- أن يرجع الطالب إلى كتب التاريخ مثل (البداية والنهاية)، و(الكامل في التاريخ) والاطلاع على ما أوردت هذه الكتب من أمر قوم سبأ وملكتهم.

٣- بعد أن يرجع الطالب إلى كتب التفسير والتاريخ والتراث يقوم بجمع واستسقاء ما ورد في شأن قصة قوم سبأ من إسرائيليات وروايات وأخبار وتفصيلات. وذلك بغية (التوقف) في أمرها، وتنبيه الطلبة إلى عدم إثبات أو نفي هذه الأخبار، مع التنبيه إلى غرابة بعضها.

٤- أن يقوم الطالب بالرجوع إلى قصة ملكة سبأ في سورة النمل، ويلاحظ موقف سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد. وما دار بعد ذلك بين سيدنا سليمان عليه السلام وملكة سبأ من حوار وأحداث. ثم يربط الطالب ما بين قصة ملكة سبأ

الواردة في سورة النمل وما ورد في سورة سبأ من أمر قوم سبأ ويحاول أن يوفق بين هذه الأحداث زماناً.

٥- أن يتجه الطالب نحو التقليل من الطعام، مستجيباً لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾. حيث سبق بيان أن (من) هنا تفيد التبعيض. أي كلوا بعض رزق ربكم، حيث أن المقصود من الأكل سد حاجات الجسم، والاكتفاء وليس الامتلاء.

٦- أن يقوم الطلاب بتنفيذ رسم مخطط تقريبي لصورة سد مأرب ومن حوله الجنتين ومساكن قوم سبأ، بحسب ما ارتسم في مخيلاتهم من صور أثناء قرآتهم وتفسيرهم لهذه الآيات.

٧- أن يداوم الطالب على شكر الله على كل مظاهر نعمته ابتداء من شكر اللسان وصولاً إلى تأديه حق الله في كل نعمة من نعمة (على كل سلامي منك صدقة).

٨- أن يقوم الطلبة بتخريج الحديث الوارد في أمر قوم سبأ وتتبع رواياته في كتب السنّة.

قصة داود عليه السلام

أ- ورد ذكر داود عليه السلام في عدة مواضع من القرآن الكريم:

- في سورة البقرة حيث كان جندياً في جيش طالوت وقتل داود جالوت، وتولّى الحكم من بعد طالوت كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿...وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ...﴾ .
- في سورة النمل تحدثت عن وراثة ابنه سليمان له في النبوة والملك. النمل (١٥-٤٤): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ...﴾ .
- في سورة سبأ تحدثت عن جانب النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان من تسخير الجن والريح وإسالة عين القطر ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ... ﴾ ﴿... لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ..﴾ كما ذكرها الله في سورة سبأ (١٢-١٤).
- ثم جاءت سورة (صٓ) فأظهرت جانب الأنعام الذي ناله داود من الحكم وفصل الخطاب وتثبيت الملك وذكرت لنا موقفاً لم يذكر من قبل بشأن داود وهو(نبأ الخصم) والذي عوتب بشأنه، فهو عليه السلام تعجّل في الحكم ولم يسمع للطرف الآخر، وكان حرياً به أن يتريث ليسمع ما يقوله الطرف الآخر﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ب- ملامح شخصية داود في القرآن والسنة:

١- كان داود ملكاً نبياً ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ البقرة (٢٥١).

٢- كان عليه السلام قوي الشخصية لا يتردد في الأمر والحكم. كما آتاه الله الحكمة وتدبير الأمور﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

٣- آتاه الله نعماً جمّة تفرّد بها من تسخير الجبال وحشر الطير وتسبيحها معه﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾، وألان الله له الحديد وأسال له عين القطر.

٤- كان ﷺ قوياً في دينه كثير العبادة، كثير الشكر ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وقد ورد (أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً).

٥- وقد وهبه الله صوتاً جميلاً، فكان كلما تغنى بآيات من الزبور، سبّحت معه الجبال، وحشرت له الطير، وعكفت الإنس والجن على تلاوته﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠). ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ)﴾ (ص:١٨،١٩). قد شبه النبي (ص) صوت أبي موسى الأشعري بصوت داود عليه السلام، فقال عنه: (إنه أوتى مزماراً من مزامير داود).

٦- وعلمه الله الصناعة العسكرية، كما جاء في قوله تعالى، الأنبياء(٨٠): ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. ومن هذه الصناعة صناعة الدروع التي أمره الله بها إذا قال، سورة سبأ(١١):﴿أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

---

(1) محمد بسام رشدي الزين، مدرسة الأنبياء، عِبر وأضواء، دار الفكر، دمشق ط١، ٢٠٠١، ص٢٢٨.

قصة سليمان عليه السلام

أ- ورد ذكر سليمان عليه السلام في القرآن في عدة مواضع:

١- في سورة البقرة (١٠٢): ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ...﴾ .

٢- الأنبياء (٧٨-٨٢) حيث بيّنت جانباً من نعم الله العظيمة على سليمان. قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ...﴾ إلى قوله: ﴿...وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾.

٣- ورد كذلك في سورة النمل (١٥-٤٤) من خلال قصته مع ملكة سبأ.

٤- وفي سورة سبأ (١٢-١٤) تناولت الآيات التي تحدثت عن سليمان جانباً من نعم الله عليه.

٥- ثم في سورة (صٓ) ذكرت له موقفين اثنين:

الأول: موقفه من الصافنات الجياد.

الثاني: فتنة سليمان.

وقد رجّح د. فضل عباس في كتابه "القصص القرآني" بالنسبة للموقف الأول أن سليمان كان شغوفاً بحب الخيل ويعدها للجهاد في سبيل الله، وأنها في حالة استعراضه لها - ابتعدت، فأمر بردها، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها وإيناساً ورعاية. وبالنسبة للموقف الثاني، بأن فتنةً وابتلاءً شديداً ألمّ بسليمان عليه السلام وأنه عليه السلام تاب وأناب إلى ربه وطلب المغفرة من الله تعالى.[1]

---

(1) فضل عباس، القصص القرآني ، دار الفرقان ، عمان ، ص١٠١-١٠٢.

ب- ملامح شخصية سليمان عليه السلام

١- أنه كان ملكاً نبياً، وملكه مستقر ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي...﴾ .

٢- إنه كان عليه السلام شغوفاً بالجهاد، قوياً في رأيه، رابط الجأش لا يلين لأعداء الله كما تبين ذلك قصته مع ملكة سبأ[١]، وكما تبينه سورة (ص) من حبه للخيل عدة الجهاد.

٣- أنه كان مع ملكه الواسع أوّاباً سريع الأوبة ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

٤- أنعم الله عليه بنعم كثيرة مثل تسخير الريح والجن والفهم العميق المبني على الحكمة.[٢]

* أثر هاتين القصتين في التوجيه والسلوك

١- في هاتين القصتين إثبات بشرية الرسل، وبيان حقيقة الضعف البشري الذي فطر الله البشر عليه. ففي القصتين المذكورتين تظهر النفسية البشرية بطبيعتها الصريحة، ففي قصة داود تظهر العجلة في إصدار الحكم والتسرع فيه وصدق الله تعالى حيث يقول في سورة الأنبياء (٣٧): ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، ويذكر الفزع أيضاً ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ...﴾ ، الفزع المجبول في الكينونة

---

(١) سورة النمل، الآية (٣٥-٤٤).

(٢) محمد بسام رشدي الزين، مدرسة الأنبياء، ص٢٨٢.

البشرية، ونلمس كذلك الضعف البشري في فتنة سليمان، فقد دهمته فتنة عظيمة لم يستطع عنها حولاً حتى توجه بكليته إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا...﴾.[1]

٢- ورغم ذلك فإن هاتين القصتين تبينان أن التوبة من الذنب عبادة مبنية على أساس عقدي يقول د. مصطفى عليان: (إن الأنبياء يخافون وخوفهم لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه، بمعنى أنه لا يتناقض والمقياس الفكري الذي بنيت عليه شخصياتهم، ذلك أن الرجوع إلى الله في الأزمات دليل على استقرار المقياس في البناء ورسوخه في النفس فإلى الله يجأر بالدعاء خلاصاً وبه يستجار من الخوف أمناً.[2] ونستفيد من ذلك بأن المعصية بالنسبة للمسلم لا تعني نهاية طريقه في الإيمان، وكذلك لا تعني اليأس من رحمة الله، بل أن له مجالاً رحباً في التوبة والقرب من الله تعالى:﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾،﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي..﴾ .

٣- الغلظة على أعداء الله تعالى هي سنته سبحانه في تثبيت دعائم الملك، والجهاد في سبيل الله هو الطريق إلى التمكين، فهذا داود عليه السلام آلَ إليه الملك بعد أن جاهد في جيش طالوت ومن ثم آتاه الله

---

(1) مصطفى عليان، بناء الشخصية في القصة القرآنية، دار البشير، عمان، ط ١، ١٤١٣هـ، ص٤٨.

(2) مصطفى عليان، بناء الشخصية، ص٤٨.

النبوة وشدّ ملكه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ...﴾ ، وكذلك رأينا في سورة (ص~) أن سليمان طلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ومع ذلك لم يقف منتظراً أن يأتيه هذا الملك على طبق من ذهب بل هو يتفقد رعيته ولا يغيب عنه جندي واحد من الإحصاء كما في سورة النمل[1]، وكذلك يتفقد آلات الحرب ويباشر أمر الخيل وغير ذلك بنفسه ويعلن أن هذا كله كان بأمر الله تعالى.

٤- الابتلاء سنّة جارية على جميع الخلق، وأشد الناس بلاءً الأنبياء، وذلك لرفع درجاتهم عند الله ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم.

أخرج الترمذي في جامعه عن مصعب بن سعد عن أبيه: (قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة).[2]

والمقصود بالأمثل فالأمثل: الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة في الدين والفضل. قال الراغب: (الأقل يعبر به عن الأشبه بالأفاضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم كناية عن

---

(1) سورة النمل، الآية ٢١.

(2) جامع الترمذي، ج٧، ص٧٩.

خيارهم[1]، وإنما كان أكثر الناس بلاء أي محنة - لتتضاعف أجورهم وتتكامل فضائلهم ويظهر الناس صبرهم فيقتدى بهم ثم من بعدهم الأمثل فالأمثل من جهة شدة البلاء الذي يتعرضون له، لأن البلاء في مقابلة النعمة: فمن كانت نعمة الله عليه أكثر فبلاؤه أشد فهم أي الأمثل فالأمثل يعرّضون للمحن والمصائب وطروق المنغصات والمتاعب، ويشمل ذلك كل ما يتأذى به الإنسان من أذى مادي أو معنوي فيبتلي الرجل على حسب دينه، أي بقدر قوة إيمانه وشدة يقينه، فإن كان في دينه صلباً أي قوياً شديداً اشتد بلاؤه كمية وكيفية ونوعاً، وإن كان في دينه رقة أي شعف ولين ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد أي ما يفارقه حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة، كناية عن خلاصه من الذنوب فكأنه كان محبوساً ثم أطلق وخلي سبيله يمشي وما عليه بأس.[2]

الابتلاء قد يكون بالسرّاء والضرّاء، وكلاهما خير للمؤمن. قالﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمّره لله له خير...). وهذان النبيان ابتليا بالسرّاء والنعمة والرخاء ومع ذلك كانا منيبين إلى الله تعالى: لم

---

(1) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، د ط ، ص٣٥٠.

(2) عبدالكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ط٣، (١٤١٤هـ، ١٩٩٤م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٨٩.

تصرفهم النعمة عن الشعور بالمنّة لصاحب الفضل المنعم سبحانه. "وهكذا كلما شكر العبد ربه، وافتقر بعبوديته لله، أكرمه الله بنعمه وأحاطه بفضله ومنّه"[1]. وهذه سنة الله سبحانه في ابتلاء أصفيائه وأنبيائه فإن هم صبروا وأنابوا انقلبت المحنة إلى منحة وفضل سابغ، ونستطيع أن نقول أن شخصية النبيين الكريمين هما النموذج الكامل للخليفة المسلم العابد لله تعالى، القائم بأمره فعدا عن عامة المسلمين أولو الأمر منهم عليهم أن يقتدوا ويتمثلوا بصفات النبيين الكريمين وهكذا نجد أن داود وسليمان عليهما السلام قد أسهما بنصيب وافر في البناء الإنساني المحكم، فغاية النعمة تستلزم غاية العبودية .. وهكذا كلما عظمت نعم الله تعالى خلصت عبوديتهم لله تعالى.[2]

٥- أن الظلم بين الإخوان والأصدقاء المتخالفين في شؤونهم أمر شائع، وهذا ما يعنيه قوله:﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. .

٦- قلة السالكين، وكثرة الهالكين، وهو المعنى بقوله:﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾، فإدراك النبي لهذه الحقائق من شأنه أن يخفف آلامه ويداوي جراح قلبه، فيعود أشد تمسكاً بالدعوة وتفانياً فيها لا يبالي بتكذيب الناس وإعراضهم، ولا

---

(1) فضل عباس، القصص القرآني، ص٣٦٩.

(2) المرجع السابق، ص٣٦٩.

يلتفت إلى سخريتهم واستهزائهم فالظلم بين الأخوان والأصدقاء مع أن من مقتضيات الأخوة السماحة والإيثار ذائع، فكيف الحال بغيرهم!! ولا يغترّ بكثرة الهالكين وقلة السالكين، كما قال تعالى في سورة يوسف (١٠٣): ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله في سورة سبأ (١٣): ﴿...وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.[1]

*** أهم المبادئ والقواعد التربوية المستنبطة من آيات قصة داود عليه السلام**

١- تنمية قدرات المتعلم (والمعلم) على التقويم الذاتي للموقف التربوي.

﴿...وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾. لقد قوّم داود عليه السلام الموقف التربوي الذي مر به، فقدّر الخطأ الذي وقع به فاسترجع عنه قبل أن يخبره عنه أحد.[2]

٢- ضرورة التعاون بين طاقات المربيين في سبيل إنجاح العملية التربوية:

قال تعالى، سورة الأنبياء (٧٨): ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾. فكل مربٍ له قوته العلمية وخبرته التربوية وطريقته العملية فإذا تعاون مع إخوانه المربيين واحترام آراءهم وتحاور

---

(٢) شاهر ذيب أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص القرآني دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، ١٩٩٩، إشراف د. حيدر خوجلي، ص ١٢٣، وسيشار إليه أينما ورد بـ (أبو شريخ، مبادئ التربية في القصص).

معهم واستمع إلى نصائحهم كان ذلك عوناً له في نجاحه واتساع أفقه نتيجة لاطلاعه على خبرات وأفكار جديدة ومتنوعة.

هذا ما كان عليه داود وسليمان عليهما السلام إذ كانا يتعاونا في القضاء وفي النظر والبحث في المسائل المعروضة عليهما ثم يحكمان بالأصوب والأرجح وهذا من تمام الحكمة لديهما عليهما السلام.[1]

٣- أخطاء المربي (المعلم) لا تستلزم القدح في كفاءته:

قال تعالى، سورة الأنبياء (٧٨-٧٩): **﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾**.

فلقد ذكر الله تبارك وتعالى أن سليمان أصاب في حكم المسألة ولم يذم داود عليه السلام على خطئه ثم أثنى على الطرفين بقوله **﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾**. فالمربي مهما وصلت مرتبته من العلم والمعرفة يبقى واحداً من البشر، والبشر كلهم معرّضون للوقوع في الخطأ والزلل.[2]

([1]) مجدي لبيب الدارس، القواعد التربوية في القصص القرآنية من سورة الأنبياء وآثرها على المجتمع، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠٠١، إشراف د. عبدالله زاهي الرشدان، ص٦١، وسيشار إليه أينما وردت بـ(مجدي الدارس، القواعد التربوية في القصص)

([2]) المرجع السابق، ص٦٣.

٤- على المعلم أن لا يتعصب لقول نفسه إذا تبين له الصواب في خلافه:

فداود عليه السلام بعد أن اجتهد بمسألة الحرث وأبدى رأيه تراجع عنه لما تبين له الصواب في اجتهاد ولده سليمان عليه السلام.[1]

وقد ورد في سنة النبي ﷺ بيان لمسألة الحرث هذه حيث أنه لما بلغ سليمان عليه السلام مبلغ الرجال صار أبوه يشاوره في أموره ويستعين به في تيسير شؤون حكمه، وفي يوم من الأيام، تخاصم إلى داود عليه السلام رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر في الليل فأفسدته فلم تبق منه شيئاً، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه فقال: يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع! فقال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع رُدّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها، فقال له داود: وفقت يا بني، وقضى بينهما بذلك.[2]

---

(1) مجدي الدارس، القواعد التربوية في القصص القرآنية، ص٦١.

(2) محمد بسام الزين، مدرسة الأنبياء، ص٢٧٦.

٥- تنمية قدرة المتعلم على تقويم ونقد الموقف التربوي:

فداود عليه السلام يستمع لنقد ولده سليمان عليه السلام، وتقييمه للموقف الذي حكم فيه أبوه ثم يشجعه ويحثه على الاستمرار حين شهد له بالتوفيق قائلاً: وفقت يا بني.

فالمؤسسات التربوية والعاملين فيها في العالم الإسلامي مطالبين بتدريب المتعلمين على ممارسة التقويم للمواقف التربوية المختلفة، فينشأ المتعلم وهو يملك روح النقد البنّاء ولا يتعامل مع الأمور على أنها مسلمات ولا يحق له إبداء الرأي فيها فوقتئذٍ تكون المدرسة التربوية قد صاغت شخصية واعية لدى المتعلم ليس من السهل تضليلها.

وهذا الأسلوب يعطي الولد ثقة بنفسه ويهبه استقلالاً لشخصيته كما يمنحه القدرة على اتخاذ القدرة وقول الحق دائماً والبعد عن التردد والعفوية.[1]

٦- هدم الرأي المخالف يتطلب إعطاء البديل التربوي المناسب:

لقد نقد سليمان عليه السلام رأي والده داود عليه السلام، حين دخل عليه وقال: يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع. ومباشرة طلب من والده أن يقدم البديل المناسب حتى تكتمل الفائدة فقال له: وما هو؟ حينها تقدم سليمان عليه السلام بالبديل قائلاً يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها... الخ.

---

(١) مجدي الدارس، القواعد التربوية في القصص، ص٦٢.

هذا هو الأسلوب المنطقي في التعامل مع آراء الآخرين، فمجرد الرفض لا يعني عدم صلاحية الرأي الآخر حتى يتم تقديم الرأي الأفضل والإجراء الأسلم.[1]

٧- العلم شرف يسعى لتحصيله كل من المعلم والمتعلم، والعلم شرط لنجاح المعلم.

قال تعالى، سورة النمل (١٥): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾.

وقال تعالى، سورة الأنبياء (٧٩): ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. وفي هذا دليل على علو مرتبة العلم وذلك لامتنان الله عليهما بأن آتاهما إياه.[2]

*** أهم المبادئ والقواعد التربوية المستنبطة من آيات قصة سليمان عليه السلام:**

١- على المتعلم المجتهد أن يطمح لأن ينال أعلى الدرجات وأرفع المستويات:

وهذا ظاهر في دعاء سليمان عليه السلام حيث قال، سورة (صٓ) (٣٥):

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. فقد أراد نبي الله سليمان عليه السلام من ربه أن يؤتيه ملكاً خاصاً به يتميز عن كل ملك آخر يأتي من بعده، وأن تكون درجة الملك غير مكررة ولا معهودة في الممالك التي يعرفها الناس.

---

(١) أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص، ص١٢٤.

(٢) مجدي الدارس، القواعد التربوية في القصص، ص٦٣.

وهكذا ينبغي أن يكون المتعلم متشوقاً لأن ينال أعلى درجة علمية، وأن يطمح إلى أن يتفوق على أقرانه بجده واجتهاده، وأن ينافسهم في تحصيله العلمي حتى ينال الدرجة والمستوى الذي لم يصل إليه أحد.

٢- تهذيب نفوس (المعلم والمتعلم) على الرفق بالحيوان، والإحسان إلى مخلوقات الله الأخرى:

والمعلم قدوة لتلاميذه وأتباعه في هذا الأمر.

ويظهر لنا هذا المبدأ التربوي من خلال فهمنا الدقيق لموقفين:

الموقف الأول: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

وهنا لابد من الوقوف على تفسير هذه الآيات، وبيان آراء كبار المفسرين في شأنها، وبيان التفسير الراجح لهذه الآيات مع الاستدلال على ذلك بالمرجحات المعتبرة.

* معاني الكلمات: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾

- الصافنات: جمع صافنة، وفيه خلاف بين أهل اللغة، قال الزجّاج: (هو الذي يقف على إحدى يديه ويقف على طرف

سنبكه، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه، قال: وهي علامة الفراهة).[1] وقيل هو القائم مطلقاً سواء كان من الخيل أم من غيرها.

- الجياد: إما من الجودة، فيقال جاء الفرس يجود جودة بالفتح والضم، فهو جواد للذكر والأنثى، جمع أجياد، وقيل جمع جيّد.[2] وقيل: وصفها بالصفون والجودة، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين: واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرَت كانت سراعاً خفافاً في جريها.[3]

ذهب الكثير من المفسرين في تأويل هذه الآيات إلى أن سليمان عليه السلام عرضت عليه الخيل، وهي الصافنات الجياد في وقت العشي وبدأ يتفقدها واحدة واحدة، وكانت من الكثرة بحيث شغلته عن صلاة العصر حتى غربت الشمس وتوارت بالحجاب وهذا معنى قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي أثرت حب الخيل على ذكر ربي أي على الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب أي غربت، ثم أراد أن يكفر عما

---

(1) الساجستاني، أبو بكر محمد، غريب القرآن، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، ١٣٩٧ هـ، ص٢٤٣.

(2) المرجع السابق، ص٢٤٣.

(3) الزمخشري، الكشاف، ج٤، ص٣٨٠.

حدث منه من ذنب فقال: ردوها عليّ، أي ردوا الخيل عليّ فلما ردوها بدأ يقطع سوقها وأعناقها، والسوق جمع ساق. هذا ما يراه كثير من المفسرين.

وذهب البعض -وهم القلة منهم- إلى تأويل الآيات على غير هذا النحو، حيث قالوا:

أن سليمان عرضت عليه الخيل التي كان يعدها من أجل الجهاد في سبيل الله ففرح وقال إني أحببت حب الخير أي الخيل عن ذكر ربي أي أحببتها وآثرت حبها من أجل الله تبارك وتعالى والجهاد في سبيله حتى بعدت الخيل وتوارت الحجاب، فقال ردوها عليّ أي ردوا الخيل عليّ بعد أن بعدت حتى لا يكاد يراها، فلما ردوها بدأ يمسح سوقها وأعناقها، إيناساً لها ورغبة في رؤيتها كما يمسح أصحاب الخيل خيولهم حباً وإعجاباً ورعاية. وذهب الإمام الرازي إلى هذا القول وخالفه الكثيرون من بعده.[1]

نحن لا ننكر التفسير الأول إذا كان هناك ما يدل عليه من الحديث الصحيح، أما إذا لم يوجد ولا نخالة، قد وجد - فلسنا ملزمين بالأخذ به ولا يق لأحد أن ينال من الآخر بسبب رأي يترجح عنده، على أننا أميَل إلى قبول الرأي الثاني لما يلي:

١- إنه أليق بالأنبياء.

([1]) فضل عباس، القصص القرآني، ص٣٥٦.

٢- إنه ليس بحاجة إلى تقدير فاعل أجنبي كما هو في الرأي الأول، لأن الشمس التي قدرناها فاعلاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ليس لها ذكر، أما إن قلنا إن الخيل هي الفاعل فذلك ليس غريباً على السياق.

٣- ما نظن أن نبياً يمكن أن يحدث منه مثل هذا، فيشغل عن صلاة العصر إن كانت هناك صلاة عصر مفروضة عليهم.(١)

وعليه فما سبق بيانه يدلل على صحة استنباط هذه القاعدة التربوية من موقف سيدنا سليمان مع الخيل

الموقف الثاني الذي يدلل على هذه القاعدة التربوية هو موقف سيدنا سليمان ﷺ مع وادي النمل. قال تعالى، سورة النمل (١٨-١٩): ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

وفي هذا توجيه للمتعلمين بضرورة الاعتناء بهذه المخلوقات الضعيفة، والتي تحتاج من كل الرعاية والاهتمام، لأن ذلك من تمام التربية الكونية الشاملة.(٢)

---

(١) فضل عباس، القصص القرآني، ص٣٥٧.

(٢) أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص، ص١٢٥.

٥- أهمية إدراك المعلم لغات الأمم الأخرى وتعلمها:

قال تعالى، سورة النمل (١٦): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾. وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم، وهي لغتها ومنطقها فيما بينها.

قال تعالى، سورة الأنعام (٣٨): ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. وإدراك لغات الطيور إعجاز إلهي جعله الله تعالى لسليمان عليه السلام وخصّه به، إلا أنه دعوة للبشر في الاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم عن طريق المحاولات العلمية، كما أنه دعوة لتفهم لغة الشعوب الأخرى وذلك أدعى للسلامة والتثاقف البشري.[1]

٦- علوم الشريعة الإسلامية هي أشرف العلوم وأهمها عند العلماء والمتعلمين المسلمين:

قال تعالى عن سليمان عليه السلام أنه قال، سورة (صۤ) ٣٥: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾. فقد قدم الاستغفار على طلب الملك لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا فقدم الأولى والأهم. لأن علوم الدنيا تصلح دنيا الإنسان وأمور حياته ومعاشه وهي أمور ضرورية قد حثت عليها شريعة الإسلام واستنفرت طلبة العلم إلى البحث فيها وتطويرها، ولكن العلوم الأهم التي ينبغي أن يشتغل بها الإنسان وأن لا يقدم عليها

---

(١) أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص، ص١٢٤.

شيئاً من العلوم هي علوم الشريعة الإسلامية مثل علوم التوحيد وعلوم القرآن الكريم وعلوم الحديث النبوي الشريف والفقه.[1]

٧- استخدام المعلم التعزيز بالإيماءات:

قال تعالى، سورة النمل (١٨-١٩): ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾. حيث استخدم سليمان عليه السلام إيماء الابتسام كأسلوب تربوي في تعزيز موقف النملة المرغوب، فقد كان صنيع النملة مع قومها مثار إعجاب لسليمان عليه السلام ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ كتعزيز لموقفها هذا.[2]

٨- لا مانع من ذكر المربي سعة علمه لا للافتخار على الناس وإنما لبيان فضل الله تعالى عليه وليدل المتعلمين على الاستفادة منه.

قال تعالى، سورة النمل (١٦): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

فهذا نبي الله سليمان عليه السلام يذكر سعة علمه ويذكر علو قدره أمام الناس ولا يقصد بهذا مجرد التفاخر أو الاعتزاز بالنفس وإنما هو

(١) مجدي الدارس، القواعد التربوية في القصص، ص٦٦.

(٢) أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص، ص١٢٥.

ذكر لنعمة أنعمها الله عليه وكذلك هذا الخطاب فيه حث للناس على الاستفادة من هذا العلم والالتفاف حول هذا العالم الصالح ليتعلموا منه ما ينفعهم ويصلح حالهم.[1]

٩- يقظة المربي المستمرة في تفقد أحوال المتعلمين:

قال تعالى، سورة النمل (١٧): ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. فمن حسن نظامه أنه يتفقد الجنود بنفسه مع أنه قد جعل لهم مديرين، فإن قوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ دليل على ذلك، حتى أنه تفقّد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها.

قال تعالى، سورة النمل (١٧): ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾. فبالرغم من ضخامة الملك وكثرة الجنود والاتباع وسعة العلم والمعرفة يطمئن سليمان على أحوال اتباعه وجنوده فيفتقد منهم تابعاً صغيراً ومتعلماً مطيعاً هو الهدهد فيسأل عن سبب غيابه.

وهذا درس يوجهه سليمان عليه السلام على كل معلم ومربي مضمونه أن سمة مهمة من سمات شخصية المربي الناجح والمعلم المخلص هي سمة اليقظة والانتباه إلى أعمال وحركات المتعلمين حوله ومدى انتباههم لشرحه وتفاعلهم معه وكذلك العناية بحضورهم وغيابهم، ومعرفة الأسباب التي تقف وراء غياب المتعلم ثم يقدم المعالجة

---

(١) أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص، ص١٢٦.

التربوية التي تضمن انسجام المتعلم مع الموقف التعليمي واستفادته منه.

١٠- ضرورة تواضع المربي (المعلم) ولو كان ممن أوتي علماً كثيراً:

فقد قال تعالى عن سليمان عليه السلام أنه قال: سورة النمل (١٦): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

فسليمان عليه السلام في خطابه لمن حوله يعترف بما هو فيه من سعة علم ومعرفة وصلت به إلى أن علم لغات الطيور والحيوانات وسعة الملك وصلت به إلى أن حكم الجن والرياح. فإن هذا كله من فضل الله تبارك وتعالى عليه ومنّه وكرمه وأنه ما كان ليصل إلى هذا العلم وهذا الملك لولا عطاء الله الواسع له.[1]

وهذا خلق رفيع على المربي أن ينتبه له فيعرف فضل الله عليه دائماً ويشكره ويثني عليه دائماً على ما قدّم له وأنعم عليه، فإذا تمسك المعلم بهذا الأدب العالي علا قدره عند طلابه وارتفع في أعينهم وازدادوا له حباً. وهذا ما أشار إليه رسولنا محمد ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله). "جامع الترمذي، رقم ٢٠٢٩".

---

(1) مجدي الدارس، القواعد التربوية في القصص، ص٦٧.

١١- المعلم الناجح يستمع الى تلاميذه ويحاورهم والتربية الراشدة لا ينتقص فيها الصغير ولا يهان فيها الكبير:

قال تعالى في سورة النمل (٢٢): ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾. فإن المتعلم الصغير في التربية الراشدة التي يظلها العدل والحرية والأمان، لا يمنعه صغره من أن يرد على المربي الكبير، بشجاعة وقوة، فالهدهد مع صغره يرد على نبي الله سليمان ﷺ، وسليمان ﷺ يضع قول الهدهد موضع الاهتمام والتحقيق والاختبار، وما ذلك إلا لسمو التربية الراشدة في عصرهما.[1]

١٢- التزام المعلم بالبدء بلفظ آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في التربية والتعليم:

قال تعالى، سورة النمل (٢٩-٣٠): ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

على المتعلمين أن يبدأوا مناشطهم التربوية بعبارة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وعلى المربين أن يفهموا المتعلمين دلالات هذه العبارة، وعلى واضعي المناهج والكتب المدرسية أن يبدأوا بعبارة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لما لهذه العبارة من تأثير خير في التنشئة الإسلامية، فقد بدأ سليمان ﷺ تربيته لملكة سبأ وقومها بهذه الآية.

---

(١) ابو شريخ، المبادئ التربوية في القصص، ص١٢٦.

نماذج من الإعجاز التربوي للقرآن

أ- لا تضار والدة بولدها:

قال تعالى:

﴿ والوالداتُ يُرضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْن كَاملَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعةَ، وعَلى المَوْلُودِ لَهُ: رِزْقُهنَّ وكَسْوَتُهُنَّ بالمعروفِ لا تُكلَّفُ نَفسٌ إلاَّ وُسْعَها. لا تُضَارَّ وَالِدةٌ بوَلَدِها، ولا مولودٌ له بِوَلَدِه. وَعَلى الوارِثِ مِثْلُ ذلك ... ﴾ [البقرة / ٢٣٣].

تحدثت هذه الآية الكريمة عن أحكام الرضاعة، وللفقهاء والمفسرين جهود كبيرة في تفصيل تلك الأحكام وتفسيرها فمن شاء الاطلاع عليها فليراجعها في تلك التفاسير ذات الطابع الفقهي مثل: أحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن لابن العربي المالكي، وفي تفسير القرطبي بالإضافة إلى كتب الفقه المعروفة.

أما ما يعنينا هنا فهو التماس وجه من وجوه الإعجاز التربوي القرآني من خلال تقليب وجوه النظر في جملة [لا تضار والدة بولدها، ولا مولود له بولده].

وقد اخترنا الوقوف عند هذه الجملة لأسباب منها:

أن إيقاع الضرر بالآباء والأمهات في عصرنا، اتسع نطاقه، وزاد انتشاره مع كثرة الاختلاف بين الأزواج، وما تشهده مجتمعاتنا المسلمة من تفكك اسري، وتحلل خلقي في بعض الحالات. وعند انتقال الخلافات

الأسرية من نطاق الأسرة إلى أروقة المحاكم ودور القضاء والشرطة يكثر استخدام الأطفال الأبرياء وسائل ضغط يستغلها طرف ضد طرف من الوالدين ويتجاهل الوالدان هذا الحكم الإلهي الصارم المحرِّم لإضرار طرف بطرف باستغلال المولود.

أن في هذه الجملة ثلاث قراءات صحيحة. ولكل قراءة توجيهها اللغوي وتأثيرها الدلالي .

أن لهذه الجملة حالتين من الإعراب ترتيبا على اختلاف القراءات من جهة وسيراً على نهج العربية من جهة أخرى- ولكل من الحالتين تأويل، مع أنهما في النهاية تؤديان إلى حكم واحد وهو: الزجر عن هذا المسلك المشين: الإضرار المتعمد باستخدام الولد.

أن هذه الجملة وما يبنى عليها من أحكام مما لا يلتفت إليه الخطباء والعلماء والوعاظ في أحاديثهم ودروسهم وكتاباتهم فصار هذا الحكم كالمنسيّ.

أولاً : القراءات:

ورد في قوله تعالى (لا تُضارَّ) القراءات الصحيحة التالية:

أ- قراءة نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف. كلهم قرأها كما في المصحف بفتح الراء وتشديدها.

ب- قراءة أبي عمرو وابن كثير ويعقوب (لا تُضَارُّ) بضم الراء وتشديدها.

ج- قراءة أبي جعفر المدني (لا تُضارْ) بتسكين الراء من غير تشديد ولا يخفى على القارئ أن لكل قراءة من القراءات السابقة توجيهاً يؤثر في فهم دلالات الآية. وهذا التوجيه يتضح من السطور القادمة التي نتناول فيها أوجه الإعراب المتعددة للآية الكريمة.

ثانياً: الإعراب:

القراءة الأولى المرموز لها بالرمز (أ) هي قراءة أكثرية القراء العشرة، وطبقاً لهذه القراءة؛ تكون (لا) حرف نهي، والفعل (تضَارَّ) مجزوم بها، وعلامة جزمه السكون التي طرأت على الراء الثانية، (فالحرف المشدد في لغة العرب أصله حرفان: أولهما ساكن والثاني متحرك) فأصل الفعل: (تُضَارَرُ) فلما وقع التشديد واندمج الحرفان في حرف واحد، صارت الراء الأولى ساكنة فلما سكنت الثانية تأثر علامة الجزم (لا الناهية) اجتمعت راءان ساكنتان، وطبقاً لقواعد الصرف: تحركت الراء الثانية بالفتح تخلصاً من التقاء الساكنين، وأدغم السكونان معاً فصارت الكلمة بالصورة التي قرئت بها (لا تضارَّ).

وعلى هذه القراءة يحتمل الفعل (تضار) إعرابين: فهو إما أن يكون مبنياً للمعلوم وأصله (تضارِرُ: بكسر الراء الأولى قبل إدغامها) وعلى هذا الاحتمال يصبح المعنى: لا يصح للأم أن تستغل وليدها أو رضيعها لإلحاق الضرر بوالده. فالأم هنا فاعل مرفوع بالضمة.

وإما أن يكون الفعل (تضار) مبنياً للمجهول، وأصله (لا تُضَارَرُ) بفتح الراء الأولى قبل إدغامها، وعلى هذا الاحتمال يصبح المعنى: لا يصح للوالد أن يلحق الضرر بزوجته باستغلال ابنه الرضيع. فتكون الأم هنا (أعني لفظ: والدة) نائب فاعل: أي أنها في الأصل مفعول به تحول إلى نائب فاعل على قاعدة البناء للمجهول. أي : لا يصح أن يلحق الأمَّ ضررٌ بسبب ابنها.

فالإعراب كله – في ظل هذه القراءة – مرتكزٌ على النهي والزجر .

والقراءة الثانية: قراءة أبي عمرو، وابن كثير، ويعقوب بالرفع:[لا تضارُّ]، وعلى هذه القراءة تكون (لا) نافية، والفعل المضارع بعدها (تضار) مرفوع بالضمة الظاهرة.

وتكون جملة (لا تضارُّ والدة بوالدها) كأنها مرتبطة بالآية السابقة عليها (لا تُكلفُ نفسٌ إلا وِسعها). وكأنها تفسير لها، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري في الكشاف (١/ ٢٧٩) والآلوسي في روح المعاني (٢/ ٢٢٠) فالنفي في الجملتين [لا تكلف نفس إلا وسعها– لا تضار والدة بولدها] له علاقة بقوله تعالى [بالمعروف] وكأن الجملتين اللتين وردتا بعد قوله [بالمعروف] تفسير وبيان لهذا المعروف وعلى هذا الفهم تكون جملة [لا تكلف نفسٌ إلا وِسعها] نفياً في موضع النهي، فكلاهما (أي الزوجين) منهي عن أن يكلف صاحبه فوق ما يستطيع، فالزوج منهي عن أن يكلف الأم ما ليس في وسعها فتلتزم الإرضاع ولا تعطي حقها، وهي منهية عن أن

ان تكلف الاب ماليس في وسعه، فتمتنع من الإرضاع، أو تطلب فوق ما تستحق.

واما القراءة الثالثة –وهي قراءة صحيحة عشرية– فقد انفرد بها أبو جعفر المدني، وهذه القراءة بتسكين الراء من الفعل على أن [لا] ناهية، والفعل بعدها مجزوم بها. فإذا وقف القارئ على الفعل وقف عليه ساكنا، وقد أجرى أبو جعفر المدني الوصل مجرى الوقف فوقف على الراء وهي ساكنة مجزومة، ووصلها أيضا وهي ساكنة مجزومة [لا تضار والدة بولدها].

ولكن المعنى –في نهاية المطاف– يؤول إلى المعني المفهوم من القراءة الأولى، وهي قراءة الأكثرين، فاللام في الحالين للنهي، فالقراءة الثالثة لا تؤدي معنى جديدا.

ثالثا: المعنى العام:

وخلاصة أوجه الإعراب المختلفة، وأوجه القراءات المختلفة، أن جملة (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) نهي عن تبادل إيقاع الضرر بين الزوجين باستغلال الأبناء، سواء أكان هذا النهي نهيا صريحا باستعمال (لا) الناهية، أم كان باستعمال النفي مراداً به النهي، وهو أقوى دلالةً من النهي الصريح.

أوجه الإعجاز التربوي في الآية:

إن التربية البشرية التي أصبحت علما يضم علوماً متعددة، تفرعت اهتماماتها وأصبحت تتوزع إلى ما يخص العملية التعليمية من مناهج وأساليب تدريس، وطرائق للقياس والتقويم، وانزوى الهدف الرئيس للتربية وهو 'تعديل السلوك' في جانب واحد هو جانب الصحة النفسية، وفي تخصصات أصبح لها آلياتها وبرامجها المعقدة فيما يعرف بالعلاج والإرشاد النفسي وأكثر آليات تلك التخصصات وبرامجها تعتمد اعتمادا كبيرا على نتائج البحوث التجريبية، والدراسات الإحصائية الصماء.

ولكن التربية الإسلامية لا تستمد آلياتها وبرامجها من بحوث تجريبية أجريت على القرود والقطط والكلاب -كما هو الحال في علم النفس الوضعي- بل تستمدها من معينٍ الهي حكيم هو القرآن الكريم. فالذي أنزل هذا الكتاب الحكيم، هو - جل وعلا- الذي خلق النفوس، ويعلم ما فيها من عللٍ وأمراض. وما الذي تصح به النفوس والأبدان.

لذلك كله، يصعب أن يوصف ما تصل إليه التربية البشرية -مهما تبلغ دقته- بأنه إعجاز. بل غاية ما يوصف به أنه قد يكون ناجحاً أو غير ناجح، فعّالاً أو غير فعّال. هذه ناحية.

والناحية الثانية أن بحوث السلف في مجال إعجاز القرآن وقفت أمام الإعجاز البياني لا تكاد تتجاوزه، وذلك في معرض دفاعها عن إلهية

المصدر في مواجهة أولئك الذين يتهمون محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه هو الذي كتب القرآن الكريم، ثم أضاف العلماء العصريون أبوابا من الإعجاز العلمي، والإعجاز العددي.

وبقيت الكتابات التي تناولت مفاهيم التربية القرآنية وآفاقها خارج اسوار مباحث الإعجاز لأسباب لا مجال للخوض فيها هنا.

ولكننا في ضلال هذه الجملة [لا تضار والدة بولدها] نقف خاشعين أمام ضرب جديد من الإعجاز التربوي والنفسي، تتنوع منه وجوه التربية الإلهية للبشر تنوعاً عجيباً، فتغيير حركة حرف واحد من حروف كلمة في جملة في آية: هذا التغيير يحمل وجوهاً للتأثير النفسي ذات دلالة يعجز عن الإتيان بها أساطين التربية البشرية. فكل قراءة، وكل وجه إعرابي: فيه ما فيه من معانٍ وآثارٍ تربوية عميقة، فمثلا:

الإعجاز التربوي باختيار كلمة دون غيرها:

في قوله تعالى (بولدها) إضافة للولد إلى أمه، وفي قوله (بولده) إضافة للولد إلى والده. فالعدول عن لفظ [أم] أو [مرضعة] إلى لفظ (والدة) والعدول عن لفظ (ابن)، أو (رضيع) أو (طفل). إلى لفظ: ولدها، وولده.. في هذا الاختيار قدر كبير من الاستعطاف والتحنن وإثارة الجانب الخيِّر من الطبيعة الإنسانية. إذ إن تلاوة الآية، والاستماع إليها، وتدبر بنائها بقلب سليم وعقل متفتح، من شأنه أن يصرف القارئ أو السامع عن هذا السلوك الشائن المنهي عليه: أعني الإضرار باستغلال

الرضيع. فالأم إذا فكرت في إيذاء زوجها عن طريق الضغط على الابن أو إيذائه بأي وجه من الوجوه، لو فكرت هكذا ثم استمعت إلى الآية أو تدبرتها، لوقفت أمام كلمة (بولدها) وكلمة (بولده) وثابت إلى رشدها، وخافت أن يتمادى الأب –في سياق المضارّة والعداوة– إلى إيذاء الطفل من جانبه. فإذا بها تنتهي عما انتوت.

الإعجاز التربوي بإيقاظ الفطرة السويّة :

إن تلاوة الآية على القراءة الثانية (لا تضارُّ) معناها كما قلنا: النفي، أي أن الأصل في السلوك الإنساني السوي: ألا يتضارّ الوالدان باستخدام الابن. والبلاغيون يقفون عند هذه القراءة وقفة إعجاب وتقدير. لكن كل ما يعنيهم هو أن النفي هنا أبلغ من النهي، وأن قراءة الآية على صورة النفي [وهو أسلوب خبري] تتفق مع صدر الآية [والوالدات يرضعن ..].

لكننا كتربويين ننظر إلى استخدام النفي على أنه أعظم تأثيراً في السلوك الإنساني لأنه يُشعر القارئ أو السامع بأن هذا المسلك هو أصل الفطرة الذي لا يصح مخالفته. وقد التفت إلى هذا الملمح بعض البلاغيين على ما نراه في بعض التفاسير القديمة كنظم الدرر والكشاف.

الإعجاز التربوي بتنشيط الإرادة:

إن استعمال كلمة (تضار) أو (يضار) يحمل توجيهاً تربوياً كامناً لكنه ملموس، فالفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، وسواء أكان المتلو أو المسموع نهياً أو نفياً في مقام النهي، فإن المضمون التربوي يلازمه: فالثواب والعقاب إنما يكونان نتيجة الإرادة والاختيار، والإضرار –في الحال أو المستقبل– إنما هو إرادة واختيار. فكأنه سبحانه وتعالى ينهى عن سلوك بفعل يتضمن بالضرورة انذارا بالعقاب. وهذا غاية الإعجاز في تنشيط الإرادة البشرية وتفعيلها.

٤- الإعجاز التربوي بمراعاة الأصل:

إذا كان أصل الزواج هو السكينة والرحمة، وأساس تكوين الأسرة هو التكامل والتواد وإعمار الأرض، فان كل ما يعكر صفو ذلك الأصل أو يعطل رسالته، مخالفٌ لإرادة الله سبحانه وتعالى. وهو بهذه المثابة يعد " إضراراً " وإفساداً. فسياق الآية يشير إلى أن خرم الأصل، ومعاداة الإرادة الإلهية، هو إضرار بالمجتمع كله الذي يتكون من مجموعة من الأسر، فإذا نشب خلاف بين زوج وزوجته، وتضارًا باستخدام الأبناء، فستنشأ أسر كثيرة مستقبلاً من صلب هؤلاء الأبناء الذين عانوا مرارة خلافات والديهم. وتلك الأسر سيكون حظها من الاضطراب النفسي عظيماً. فبناء الجملة على مفردات الوالدية والإضرار يدل على أن الأمثل في علاقات الوالدية التعاضد لا التضامن، والرحمة لا الشقاق.

٥- الإعجاز التربوي بثراء التعبير:

أصل الإضرار المقصود في الآية يتعلق بالخلاف بين الوالدين على أجرة الرضاع وكسوة المرضع. ولكن الإعجاز في قوله [لا تضار والدة بولدها] حمل من الإعجاز كل صور الإضرار التي يمكن أن يساء فيها استعمال الأبناء كورقة ضغط من طرف على طرف. وهنا كان للغة القرآن أثر بالغ في تحقيق الإعجاز التربوي بالإيجاز التعبيري. والله اعلم.

ب- أدوار المعلم التربوية:

قال تعالى:

" واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا. إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا. يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا..[مريم/ ٤١-٤٥] .

إنها خمس آيات تضمنت إحدى وخمسين كلمة!! تخشع أمامها قلوب العارفين، وتقشعر لسماعها جلود المخبتين، والآيات الخمس تضم فنوناً من التربية متنوعة، وأساليب للدعوة بديعة باهرة.

إنه الإعجاز التربوي للقرآن الكريم في صورة من صوره: صورة الحوار بين مرب وجهول، عالم وعنيد، نبي وكافر. إعجاز يقوم على أسس من الإقناع والتبصير ومحاولة المربي تعديل السلوك الخاطئ مستعيناً في سبيل ذلك بكل ما آتاه الله تعالى من حكمة وحسن تقدير.

وفيما يلي تحليل لبعض جوانب هذا الإعجاز التربوي الفذ في مجال من أهم مجالات التربية وهو ذلك المجال المتصل بأدوار المعلم:

أولاً : استثارة الدافعية :

من المسلم به عند التربويين أنه (لا تعلم بدون دافعية) فالمعلم مهما يبلغ من النبوغ والبراعة، لا يمكنه دفع طلابه إلى التعلم إذا ما كانوا عنه معرضين، وفي العلم زاهدين، أما إذا توفر لديهم دافع داخلي يحفزهم فانهم يقبلون على التعليم بعقول متفتحة، وقلوب واعية. لأن الدافعية تبعث في النفوس طاقة انفعالية وتتحول هذه الطاقة إلى نشاط محسوس ويرتهن نجاح المعلم في عمله بقدرته على استغلال دوافع تلاميذه من أجل تحريك نشاطهم وتعديل سلوكهم من أجل تحقيق أهداف يحددها لهم.

وقد بدأ سيدنا إبراهيم – عليه السلام- حواره مع أبيه بأن وضع له هدفاً يمس حياته مسًا مباشراً، وهو النفع أو المصلحة المبتغاة من عبادة الآلهة. فإذا كان الإله الذي يعبده المرء لا يسمع ولا يبصر فكيف يمكنه أن يساعد من يعبدونه؟ أو يحقق لهم نفعاً؟ أو يدفع عنهم ضرراً؟ بدأ إبراهيم حواره بإثارة النشاط العقلي عند أبيه لكي يحرك عنده طاقة انفعالية تجعله يفكر بالصورة الصحيحة في تلك الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر.فسأله سؤالا لا ينتظر من ورائه جوابا، وإنما هو سؤال استفزاز لتحريك هذا العقل الراكد : يا أبت ، لماذا تعبد هذا الحجر الذي لا ينفعك ولا يستطيع أن يضرك؟أو يدفع عنك شرا؟ أو يجلب لك خيرا؟.

ثانياً: استعمال الحوافز:

ينجح المعلم بقدر تمكنه من استعمال الحوافز مع طلابه، فإذا آنس فيهم شرودًا، أو عنادًا، أو خروجاً على المألوف، أو صدوفاً عن التعليم، احتال لذلك بما يتوفر لديهم ولديه من حوافز مادية أو معنوية كأن يعدهم بمكافأة أو نزهة أو حفل أوما شابه ذلك مما تتوق إليه النفوس، وتنشط له الأبدان.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام، بعد أن سعى إلى تنشيط عقل أبيه بالتفكير في جدوى عبادة الأصنام، أدرك أن هذا التفكير عملية عقلية معقدة بالنسبة لإنسان جامد الفكر، فأراد أن يقدم له حافزاً يشجعه به

على المضيّ في عملية التفكير، فأخبره بأن ما منَّ الله به عليه من العلم سوف يجعله في خدمة أبيه، وأن أباه لو أطاعه، وأعمل عقله فيما يعبد، لوصل إلى الحقيقة التي يتهرب منها: وهي أن هذه الأصنام التي ورث عبادتها عن آبائه وجدوده لا تنفع ولا تضر، ولابد أن لهذا الوجود خالقاً يجل عن التجسيم. وهذا الخالق – جل وعلا – هو الذي رزق إبراهيم العلم.

فإبراهيم في هذا النداء الثاني (ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويّا) يحفز أباه على الدخول معه في دنيا الإيمان الصافي بالخالق القادر.

ثالثاً: بسط الحقائق والتبصير بها :

ومن مهمات المعلم أن ببسط أمام طلابه حقائق الموقف التعليمي، ويبصّرهم بما لتلك الحقائق من أبعاد مختلفة تتصل بهم، وبحياتهم، واهتماماتهم، ومصالحهم. حتى يحقق لهم بذلك البسط والتبصير القانون الذي يسميه التربويون [قانون التعرف] بمعنى أن المتعلم إذا كان ذا معرفة بعناصر الموقف المراد تعلمه، فان هذا يسهل عليه استيعاب هذا الموقف الجديد والتكيف معه. وهذا ما فعله سيدنا إبراهيم –عليه السلام– حين ربط لأبيه بين عبادة الأصنام، وعبادة

الشيطان. وهذا أمر قد يغيب عن ذهن ذلك الأب الذي أعماه التقليد عن إدراك حقائق الموقف الجامد الذي يقفه من دعوة ابنه. فهو لا يدرك أن عبادته للأصنام ماهي إلا عبادة للشيطان في الحقيقة. لأن الأصنام حجارة لا قدرة لها على التأثير في نفسها ولا في غيرها. أما الشيطان فله سلطان على النفوس الضعيفة فهو الذي يسوّل لها، ويزين لها، ويوسوس لها. وقد عصى الشيطان ربه، سبحانه وتعالى، فمن أطاعه فقد أطاع عاصياً لله، فهو عاصٍ بالتبعية.

رابعاً: التهديد بالعقاب:

ومن شأن المعلم إذا أخفق أسلوب التنشيط العقلي، واستعمال الحوافز، وبسط الحقائق، أن يلجأ إلى ما ترتدع به النفوس الشاردة، وترعوي به القلوب الجاحدة، وهو أسلوب العقاب، أو التهديد باستخدام العقاب.

وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام في نهاية حواره، حين لم يلمح في وجه أبيه اطمئناناً إلى حديثه، ولا ثقةً بحججه، ولا رغبةً في اتباعه، بادر بتخويفه من عذاب الله تعالى، ومن موالاة الشيطان الذي هو عدو لله وعدو للمؤمنين.

وقد أوضحت الآيات التالية من الحوار، ما ردّ به الأب الجهول على ابنه النبي العالم الصالح القانت الراغب في إنقاذ أبيه، من براثن الجهل، ووهاد الضلال، ودركات التبعية العمياء. "قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً" [مريم / ٤٦] كما أوضحت الآية التالية لهذه الآية ما لقي به إبراهيم هذا الجفاء الغليظ، وهذه القسوة النابية، من سعة الصدر ورقة الحلم – بكسر الحاء– فقال لهذا الأب الجافي: "قال: سلام عليك، سأستغفر لك ربي، إنه كان بي حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا" [مريم / ٤٧-٤٨؟].

وهكذا.. كانت عماية الجهل، وغواية الانقياد الأعمى للموروث الثقافي المتهافت، غشاوةً على عقل الرجل، فلم يستجب لنداء الحق والإيمان، وختم الله على سمعه وبصره وبصيرته فلم يتبين أنوار الهداية التي تذرعت بكل أساليب الإقناع التربوية:

- بالدعوة إلى إعمال العقل
- وبالتحفيز على اتباع العلم
- وبشرح أسباب الغواية

- وبالتخويف من العقاب!!

وبالرغم من هذا الجفاء، وتلك الغلظة، لم يفقد إبراهيم عليه السلام حلمه، ولا أساء الأدب في حواره مع أبيه، ولكنه استسلم لمشيئة هذا التحجر الجاثم على بصيرة الرجل. وقال له في محاولة أخيرة لا ستدرار عاطفته من جهة ، وإنذار عقله من جهة أخرى : سلام عليك !! سأستغفر لك ربي!!.

أين هذا المستوى الرفيع من الخلق النبيل ؟ إننا نرى في المجتمعات المعاصرة شباباً يتنكرون لآبائهم وأمهاتهم، وفيما تنشره الصحف وتذيعه الإذاعات من قضايا الأسرة ما يشيب لهوله الوِلْدان : فهذا شاب أوتي قسطاً من التعليم يستكبر على أبيه، لان أباه رجل ضعيف الحيلة ، فقير الحال، فكأن هذا الشاب المغرور الطائش يتنكر لأصله. وهذا شاب أبوه غني ولكن الأجل يمتد به، والابن يتعجل الميراث فإذا به يقاضي أباه أمام المحاكم ويطلب الحجر عليه!! والأكثر بشاعة حين تمتد أيدي الشباب الفاسد إلى الوالدين بالضرب والإهانة..

إن أبا إبراهيم هنا يهدده بالرجم والطرد من المنزل.. والابن يرد في حلم العالم وعلم الحليم: سلام عليك سأستغفر لك ربي!!

آليات عمل المعلم التربوية كما تظهر من الحوار:

إن الآيات الخمس على وجازتها تتضمن معالم تربوية يحسن إبرازها في صورة نقاط تتعلق بمهام المعلم وأدواره وآليات عمله كما تظهر في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه. ومنها:

١- استدرار عاطفة المتعلم :

إن تكرار كلمة (يا أبت) أربع مرات في الآيات الأربع التي توجه فيها إبراهيم -عليه السلام- بالخطاب إلى أبيه يدل على أهمية أن يكون تركيز المعلم في أسلوبه التربوي على ما يثير عواطف المتعلمين ويحرك مشاعرهم الانفعالية الإيجابية نحو الموقف التعليمي. فهو بهذا النداء المتكرار، يستدر عاطفة الأبوة، ويمد جسراً من الثقة بينه -وهو النبي العالم- وبين أبيه وهو الجاهل الكافر العنيد وكان علاقة الأبوة والبنوة -في تقديره- ستسهم في تحريك مشاعر الرجل ومن ثم تحريك عقله.

٢- أسلوب الاستفهام منشط للفكر:

يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر؟ هكذا بدا إبراهيم عليه السلام حواره مع أبيه، إدراكاً منه أن ما يسميه التربويون 'الإثارة' أو

"التمهيد" للدرس – عنصر جوهري من عناصر العملية التعليمية، إنه بدا الحوار الهادئ بسؤالٍ لا هدوء فيه على الإطلاق. سؤال يتصادم مع معتقدات موروثة تشبه بحيرة آسنة ساكنة، ران عليها السكون قروناً وآمادًا طوالا. فهو يلقي فيها بحجر من الحجم الثقيل ليحرك سكونها. وهكذا.. من واجب المعلم أن يكون بدء تدريسه قويا مثيرًا فعَّالاً: بأسئلة تهز الوجدان وتزلزل العقول وتدفع المتعلم دفعاً إلى التفكير المستقل الحر. وذلك من شأنه تصفية عقلية المتعلم من أية شوائب سابقة، وتهيئتها لاستقبال المعرفة الجديدة القادمة.

٣- ثقة المعلم بنفسه ضرورية:

إن قوة شخصية المعلم تقوم بالدرجة الأولى على مدى ثقته بنفسه، وبمادته العلمية، ورسالته الإنسانية.فإذا ما توفرت له ثقة بنفسه، وأحسن إعداد مادته العلمية، وآمن بنقل رسالته وصدقه مع نفسه في أدائها. كان ذلك ادعى إلى تحقيق أهدافه، وانجاح عمله التربوي. ونحن نلمس هذا واضحاً في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه من خلال:

أ- التصريح بان ما عنده من العلم يفوق ما عند أبيه.

ب- استعمال أسلوب التوكيد الذي يعكس ثقته بنفسه من جهة ويسعى إلى كسب ثقة الطرف الآخر بما يقوله من جهة أخرى "يا أتبت أي قد جاءني من العلم ما لم يأتك".

ج- تنويع أساليب الخطاب من سؤال، إلى تحفيز، إلى تهديد بالعقاب.

٤- الحلم وسعة الصدر:

لا ينجح المعلم في أداء مهمتــــه إذا كان عجولاً، يؤوساً، مقهورًا. وانمـــا ينجح بقدر ما يتحلـــى به من صبر ومصـــابرة، وقدرةٍ على التحمـــل فان المتعلمـــين قد يصدر منهم سوء أدب، أو فظاظة في الحوار، أو غلظة في الرد، أو تعدٍ على المعلم باليد أو اللسان. وعلى المعلم أن يكون قادرًا على امتصاص ذلك كله وإحسان التعامل معه.وتدلنا الآيات على أن إبراهيم عليه السلام بعد أن استنفد كل وسائل الإقناع التربوي والتأثير النفسي، لم يجد من أبيه آذاناً صاغية ولا قلباً مفتوحاً. بل وجد إصرارًا على الكفر، وسوء رد، وغلظة في الحديث، فهو يقول أربع مرات (يا أبت) وهو أسلوب نـــداء ترغيبي لأن ياءِ المتكلم في قولـــه (يا أبي) أبدلت تاءً. والمقام بينهما لا يحتاج إلى نداء. لأن الحوار مباشر وهما متقابلان وجهاً لوجه

لكن تكرار النداء بالأبوة فيه تحنين للقلب الجامد، ومحاولة متكررة لاستحضار ملكات السمع والذهن الشاردة. ومع ذلك فان الأب الجهول يستكثر أن ينادي ابنه بقوله [يا بنّي] مسايرة لخطابه إياه في قوله [يا أبت]. بل انه يقول له: يا إبراهيم ليؤكد أن بينهما امداً بعيداً من الانفصال العقلي والوجداني.

٥- التنويع في أساليب التعليم:

على المعلم لكي ينجح في عمله أن ينوّع أساليبه التدريسية حتى يصل إلى أهدافه. وإبراهيم عليه السلام في هذا الحوار، سعى إلى استمالة والده وكسب ثقته بالسؤال المستفز والتحفيز، والبسط والشرح، والتهديد بالعقاب.

ونستفيد من هذه الأساليب وتقديرها أنها هي الأسلوب الأمثل لما يجب إن تكون عليه شخصية المعلم من سعة أفق في الحوار، وقدرةٍ على التكيف في المواقف، ومرونةٍ في الأداء التدريسي. وحلم في التعامل مع المتعلمين.

٦- التحرر الفكري:

في قول إبراهيم لأبيه "سلام عليك" وقوله "سأستغفر لك ربي" ما يشعر بأن المربي أو الداعية أو الإعلامي ومن يقوم بمثل رسالتهم،

عليه أن يختار طريق المسالمة مع مخالفيه أملا في ارعوائهم إلى الحق، فقد نقل القرطبي اختلاف أهل العلم في هذه المسألة فقال:

قوله تعالى: "قال سلام عليك" لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره. والجمهور على أن المراد بسلامه: المسالمة التي هي المتاركة لا التحية؛ وقال النقاش: حليم خاطب سفيها؛ كما قال: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" [الفرقان: ٦٣]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها. قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم؛ قال الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين" [الممتحنة: ٨]. وقال "قد كانت" لكم أسوة حسنة في إبراهيم" [الممتحنة:٤] الآية؛ وقال إبراهيم لأبيه "سلام عليك".

قال القرطبي: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة؛ وفي الباب حديثان صحيحان:ما رواه أبو هريرة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه) أخرجه البخاري ومسلم.

والثاني -في الصحيحين- عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكيه، وأردف وراءه أسامة بن زيد؛ وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبدالله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة [أي غبار أثارته دابة النبي عليه السلام]، خمر عبدالله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء لأن ذلك إكرام، والكافر ليس أهله. والحديث الثاني يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة فإنه ليس في أحدهما خلاف للأخر وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص. وقال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام فبان بهذا أن حديث أبى هريرة (لا تبدؤوهم بالسلام) إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر. قال الطبري: وقد روي عن السلف أنهم

كانوا يسلمون على أهل الكتاب. وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه؛ قال علقمة: فقلت له يا أبا عبدالرحمن أليس يكره أن يبدؤوا بالسلام؟ ! قال نعم، ولكن حق الصحبة. وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ قيل له في ذلك فقال: أمرنا أن نفشي السلام. وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم.

المؤلـف في سطور

أ.د.مصطفى رجب:

١- عمل بالسلك الجامعي: معيدا فمدرسا مساعدا فمدرسا فأستاذا مساعدا فأستاذا فوكيلا.

٢- ثم عمل عميدا لكلية التربية بسوهاج [١٩٩٥-٢٠٠١].
كما عمل عميدا للمعهد العالي للدراسات الإسلامية بسلطنة عمان [١٩٨٩-١٩٩٢].

٣- عضو اتحاد الكتاب المصريين، والمجالس القومية المتخصصة برياسة الجمهورية بمصر، ولجنة التربية بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر.

٤- رئيس جمعية الثقافة من أجل التنمية ورئيس تحرير دوريتها العلمية المحكمة [الثقافة والتنمية].

٥- رئيس مجلس إدارة جريدة [رسالة الجنوب] المرخصة من المجلس الأعلى للصحافة بمصر.

٦- يكتب في عدد من الصحف والمجلات العربية من أكثر من ربع قرن وله أعمدة ثابتة في بعضها.

٧- صدر له أكثر من ثلاثين كتابا وبحثا وثلاثة دواوين شعرية.

٨- عمل أستاذا زائرا للدراسات العليا بكلية الشريعة –جامعة اليرموك– الأردن.

العنوان الدائم للمراسلة البريدية : مصر- سوهاج- كلية التربية

الهاتف في مصر : ٠٠٢٠١٠١٩٩٨٣٧٧ - ٠٠٢٠٩٢٣٣٣١٧٠١- ٠٠٢٠٩٣٤٣٩٦٧٠١

البريد الالكتروني: mostafaragab@yahoo.com

المراجع

١ - ابن كثير، ت(٧٧٤هـ)، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢ - الترمذي، جامع الترمذي، ج٧.

٣ - جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

٤ - الراغب الأصفهاني/ المفردات في غريب القرآن/ دار المعرفة/ بيروت/ دط، دت.

٥ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ١٦٨١هـ - ١٩٦١م.

٦ - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٧ - الزمخشري، محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل/ المكتبة العصرية/ بيروت، ط ١، د ت.

٨ - الساجستاني، أبو بكر محمد، غريب القرآن، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، ١٣٩٧هـ.

٩ - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٠ - شاهر ذيب أبو شريخ، المبادئ التربوية في القصص القرآني دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، ١٩٩٩، إشراف د. حيدر خوجلي.

١١ - صلاح عبدالفتاح الخالدي، مع قصص السابقين، في القرآن دروس في الإيمان والدعوة والجهاد، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٢ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ط٣،(١٤١٤هـ، ١٩٩٤م)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٣ - فضل عباس، القصص القرآني / دار الفرقان / عمان / د ت.

١٤ - مجدي لبيب الدارس، القواعد التربوية في القصص القرآنية من سورة الأنبياء وآثرها على المجتمع، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠٠١، إشراف د. عبدالله زاهي الرشدان.

١٥ - محمد بسام رشدي الزين، مدرسة الأنبياء، عِبر وأضواء، دار الفكر، دمشقن ط١، ٢٠٠١، ص٢٢٨.

١٦ -محمد جاد المولى وآخرون، قصص القرآن، شرح وتعليق دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، د.ت.

١٧ -محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير، (مختصر تفسير الإمام الشوكاني)، دار المؤيد للنشر، ط٢، ١٩٩٦م.

١٨ -محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٩٨١.

١٩ - محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٢٠ -مصطفى عليان، بناء الشخصية في القصة القرآنية، دار البشير، عمان / ط ١، ١٤١٣.هـ .